جبرا ابراهيم جبرا

المجموعات الشعريه

- تموز في المدينة
- المدار المغلق
- لوعة الشمس
- سبع قصائد



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

جبرا ابراهيم جبرا

المجموعات الشعرية

الطبعة الأولى
تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٠

THE COMPLETE POETRY COLLECTION

by

JABRA IBRAHIM JABRA

First Published in the United Kingdom in 1990

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data.
Jabra, Jabra, Ibrahim
The Complte Poetry Collection
1. Poetry in Arabic. Lebanese, 1945 – Texts
I. Title
892.716
ISBN 1–85513–310–5

جبرا ابراهيم جبرا

مقدمة

رغم الصفة التى أُطلقت على هذه الأعمال، فإنها ليست بالضبط المجموعة «الكاملة» لما كتبت من قصائد. فيما كتبت من شعر أكثر بكثير، سواء ما نشرت منه وما لم أنشر. وبعضه، وهو غير قليل، كتبته بالانكليزية، وينتمي إلى سنوات عميقة الأثر في مراحل معينة من حياتي.

غير أن هذه الأعمال تمثّل معظم نتاجي الشعري في فترات مختلفة عبر ما يقارب ثلاثين سنة، بدءاً من مطلع الخمسينات، كنت فيها معنياً (أكاد أقول: كل يوم) بهموم الشعر، بتجديده وتحديثه، بكتابته ونقده والتنظير له، على غرار يبرز قناعتي بمركزيّة قضيته آنئذ بين قضايا الحياة العربية، إذ رأيت فيه وسيلة من وسائل إنعاش المخيلة القومية على مستوى العصر ودفعها، بمساءلة الذات والآخر، في اتجاه القدرة على التعامل مع تيارات الفكر التي باتت تهز العالم منذ الحرب العالمية الثانية. لقد رأيت فيه قوة أخرى من قوى التغيير في المجتمع كله.

وقد سمّيت هذا الشعر، منذ البداية، شعراً حرّاً، وفق مفهومي للشعر الحر، وهو مفهوم اختلفت فيه مع العديدين ممّن تصدّوا له من نقّاد ودارسين، وما زلت معهم على خلاف. وقد رأيت فيه، بعد ركود الكثير من الحوافز النهضوية والإحيائية التي عرفناها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، توسيعاً لطاقات اللغة وأشكال القول، ومؤشّراً لطاقات ما زالت كامنة في اللغة والقول سيكون مستقبلنا، كأمة وحضارة، قادراً على تفجير المزيد منها، بعد أن مهّدنا لذلك بعناد المحب،

وإصرار المؤمن بحيوية العقل العربي، إزاء المصرّين على النكوص بهذا العقل والانكفاء به إصراراً ملؤه الضجيج والجهل.

وعُرف عني رفضي لنزوع الكثيرين من دارسي الشعر إلى تسمية هذه القصيدة بقصيدة النثر. وهم اليوم، وبعد لأي، يقرّونها شعراً، لأنها باتت تمثل النزعة الأقوى والأهم في ما يكتب الآن من شعر في كل قطر عربي بغير ما استثناء. غير أن بعض الدارسين ما زالوا يمالئون السلفية بالربط فيها بين «القصيدة» وبين «النثر»، ثم يتناولونها بكامل عدّة النقد الشعري، حيث لا مكان للنثر، وهم يعلمون أن قصيدة النثر إنما هي شيء آخر، تحدثت عنه في سياقات مختلفة منذ أوائل الستينات.

بعد هذا الكفاح الطويل، الذي ساهم فيه مئات الشعراء على امتداد الساحة العربية، استقرت القصيدة الجديدة شكلاً، سمّها ما شئت. وأنا أرى في ما جرى لها في العقود الأخيرة، وما جرى للقصيدة في آداب الغرب منذ أوائل القرن العشرين، توازياً لافتاً للنظر، يؤكد مرة أخرى أن تواصل الحضارات الحيّة أمر حتمي، وكذلك تبادل التأثير في مضامين الفنون وأشكالها معاً، منذ ملحمة كلكامش، وصعوداً زمنياً إلى ملاحم الإغريق، ومعلّقات الجاهلية، وروائع الأمويين والعباسيين والأندلسيين، وما أخذه عنها الإبداع الأوروبي في القرون الوسطى وعصر النهضة والقرون اللاحقة، حتى عصرنا الراهن. وما أشكال الشعر، فيما يبدو من ذلك كله، إلا خاضعة لهذا القانون الإنساني الذي صنعه التاريخ.

أما الحصيلة فهي اغتناء البشرية روحاً وخيالاً، وتجدد قدراتها للمزيد من غزارة الحياة، وللمزيد من التأمل في مجاليها وأغوارها، تأكيداً لوعي الإنسان وجوده على هذه الأرض: حيث القصيدة تبقى أبداً شهادة الشاعر على تجربته المتفرّدة بتفرّد ذاته، والملأى، في الوقت نفسه، بأصوات زمانه.

جبرا ابراهيم جبرا
بغداد
ربيع ١٩٩٠

فلتكن هذه فروع زيتونة أخرى
في جبل الزيتون،
زرع بذرتَها في زمن مضى
فتى كان كثير الرؤى
ولا يملك من أيامه
سوى الحب، والكلمات.

تموز في المدينة

١٩٥٩

من المؤلف

إن إدخال نغمة جديدة على فن قديم يعتمد موسيقى تقليدية، أمر يحتاج إلى جرأة كثيرة، بله القدرة والبراعة. وأنا قد لا أملك الأخيرتين، ولكنني مندفع في سبيلي، مهما اعترض عليه الناس. ففي قصائدي هذه، أعنى بالتفعيلة ولا أعنى. بعض الأبيات موزون وبعضها غير موزون. وقد تتلاحق أبيات موزونة، ولكن لكل منها، في القصيدة الواحدة، وزناً مغايراً للآخر. والقوافي أستخدمها أو أغفلها حسبما أرتئي. وما ذلك إلا لأنني، إذ «أموسق» الفكرة أو الصورة، أرفض رفضاً قاطعاً أي لحن (أو «بحر») رتيب. فإذا قرئت كلٌ من هذه القصائد قراءة جهورية، مع فهمٍ لبنائها الداخلي الصاعد، الذروي، بانت موسيقاي الجديدة مع بيان الصورة نفسها. وتتضح هذه الطريقة لكل من يعرف الموسيقى الأوركسترية. ففي كل قصيدة «آلات» عديدة متباينة، و«مواضيع» مترابطة تتلاعب وتنمو نحو غايتها. والقصائد الطويلة مبنية على قاعدة سمفونية. وسيغيب أكثر هذا على السواد من قرائنا، وسيعيبه البعض ـ كالعادة ـ ولكن لا ريب عندي أن الشعر منطلق نحو هذا الشكل في المستقبل.

لقد سئمت ما يسمّى بالانكليزية Poetic diction. وشعراء العرب يعشقونه، ويخشون الألفاظ المباشرة المعنى أو الاستعمال. ثم إنني أمقت النعوت. فالحالات العاطفية، من حزن أو فرح أو غضب أو يأس، يجب أن تثار بالألفاظ المجسّدة. ومصادر الأفعال أيضاً أرفض استعمالها على وجه الاجمال.

وإذ أنظر إلى هذه القصائد الآن مجموعةً معاً، فأقرأها بلمحة خاطفة، أشعر بشيء من الرعب، لأنها تعجّ برموز الفتك والتمزيق والموت. إنها تلخّص لي سنواتي الأخيرة وبحثي فيها عن مصادر الإيناع والخصب. أكانت هذه السنوات لغيري ما كانت لي أنا؟ مهما يكن الجواب، فلشدّ ما آمل أن نعود إلى المدينة راقصين!.

ج.أ.ج
بغداد
آذار ١٩٥٩

قدحاً ملأت بألفاظي

(من أي شاعر إلى أي قارىء)

قدحاً ملأتُ بألفاظي ،
قطّرتُها ، خمّرتها ، عتقتها ،
وسكبتها ، فائضة ، في أفواه عشقتها لتنطق .
فقالت الحبّ وأطيب العبث ،
حتى الشبق جاء نطقاً
من حنجرات من الفضة ، من الذهب ،
تدندن الألفاظ فيها ، تزغرد
زغاريد الأعراس في قرانا . . .

قدحاً ملأت بألفاظي
قطّرتها ، خمّرتها ، عتّقتها ،
وسكبتها فائضة في أفواه عشقتها لتنطق .
فقالت الحقد وأمرّ العبث ،

حتى طعنةُ السكين أتت نطقاً
من حنجرات من النحاس، من الرصاص
تقرقع الألفاظ فيها، تتنابح
تنابح البغايا في مواخير المدينة.

هذه خمرنا: ألفاظُنا المقطَّرةُ،
للمشاعر في حشانا،
للحسّ في دمانا، للرعب في رؤانا،
نصبُّها، وإن نضنَّ،
لعشاقنا ومُبغضينا،
فتطلقُ منهم، كالحميَّا، القلب واللسانا،
ونَشْغلُ الناسَ، ولو ليلةً،
بحَشانا ودمانا ورؤانا...
حجارتي
لأنحت منها طوطمي -
أجل، لعينيك يا وجه بلادي
لعينيك أبكي وأغني.

ألعينيكِ أغنّي؟

ألعينيكِ أغنّي؟ أجل،
ولعشاق الدُّنى اجتمعوا
في محجريك وفي
محجريك الأغاني
لودياني
في فلسطين وشطآنها.
ألست أنا قاطفَ الزيتون
في وادي الجمل،
صائدَ الأسماك في يافا
حاديَ الإبل الظاعنات
في متاهات النقب؟
من محاجر القدس اقتلعتُ

في أرضيَ التي اقتطعتُها

في أرضيَ التي اقتطعتُها
من مسرح الأفاعي
رحابِ البوار والضباعِ
بنيتُ بيتاً من عروقي وضلوعي.
بيديَّ حرثتها
وبذوري زرعتها
مستجلباً لها الماء الشحيح
عبرِ القفار والبراري
غيرَ باغي
فوارغَ المجد المقامِ
على الفراغِ.
ولكن من رحاب الشوك والضباعِ
يرجمون البيت بالحجارِ

وثماري يجنونها بالعصيِّ
متسللين في الليل مع الأفاعي.
غير أني بيدي، بذراعي
أصدُّ زواحف الجدب حولي،
أقي القلب في الانسانِ من الضياعِ.

المدينة

١

تمعّنْ في الشارع المقفر في الظلام،
وفي أبواب الحوانيت المقفلة،
تمعّن في الشارع الممتطي في الصباح:
هل استرحْتَ بين قَفْل الأبواب وفتحها
في حضن نوم ينفضُ الأحلامَ عنه؟
نوميَ الأحلامُ تغتصبُه.
مع المصابيح والظلال أقيم،
أحسّ بوخزٍ منفصل لكل ضوء منفصل
فلا أرى إلاَّ الظلالَ في الليل
وفي الصباح.

على كل بابٍ موصَدٍ

يُسقط العابرُ ألمه
ظلاً يستدير وينبسط
لكل شهوة خاسرة.
وعلى الأبواب تتوالد الظلال
بشهوات العابرين
بين الأنا والأنا
بين العُقم والسَقَم.
والليل ينفث بين طيات النوم
أجساداً مقرّحةً، أشجاراً
تسقط الفواكه منها وتعفن على الأرض.

أما رأيتَ أصابعك تَيْبَسُ
كالمسامير اللامعة؟
كل مسمارٍ دودةُ جيفةٍ زلقت على
كُرويّ المصابيح في الدماغ،
فلا ترى إلا ظلالها تتلوى،
تتسع وتتزاحم على الأبواب وعلى الرصيف.
مع هذه المصابيحِ أعيش

بين منازلَ معروقةٍ وقفت
على تربة منهكة تخشى
ضربةَ الريح وتطويحَ العاصفة.
والدمُ لا يثمر فيَّ، والعضو مني عاقر،
ولكن في الراحة العاقر تنمو،
دون شعاع من الشمس،
ألفُ دودة.

٢

ما العقم في الدم؟
يلد السأم كل يوم فأقول:
هذا العدمْ فيه نسيان السأمْ ليوم سبقه:
عزاء وسلوى.
ولكنّ الأيامَ التي لا تني
تجرجر أشلاء السنين
إلى المنسيٍّ من القبور،
تدور أيضاً في فصول.
فتنمو البذرة ساقاً تحتوي

غضبة الشتاء وفرحة الربيع.
وإذا نفخت الشمس في نارها
اشتعل الثمر ضاحكاً لكل يد
فتستجيب، وتفيض الأحضان بالذهب.

والروح في الشارع المشدود
بحبال الضوء والظل ما زالت تلدِ
بضع قشّاتٍ فارغات
في الريح تكبو وتقشعرّ، فتخشى
هجمةَ الريح وتطويحَ العاصفة.

٢

سمعت الشارع يبكي لينام
ورأيت البيوت تقيم العظام
على العظام،
تطارد الأحلامُ سكانَها
فيرفعون خاويات الأيدي صارخين:
ألا ليت العواصفَ لا تهب!

أوَ لن تجلوَ العواصفُ عنهمُ
الظلّ والشبح ،
فتُجري العصارة منهم في الجذوع
وترضّع الفروع منهم بالبراعمِ والزهَر؟
كثيراً ما هزئت بالظلال ورقصت،
ورأيت الضباب يلف الشمس في الظهيرة،
فغنيت ورقصت من جديد.
وكثيراً ما قعدت في مقهى الطريق
أرنو إلى شفاه تتحرك،
فتدوّن وقائعَ العدم.
وعندها وإن كنت أعلم
أن الوجه يحجب روحاً
لعلها في ساعة ما تلتظي ،
لا أرى إلا وجوهاً ترجَحِنّ
كالبحر عصر يوم تائهٍ مصفرّ.
هذا يقحّ. وذاك يقول:
فلأَشربْ سيكارةً أخرى
فيها فداء الساعة.

وإلا فهل من يبغي الحديث
عن روحه، بيتِ الظلال،
بيتِ الشمس، المتأرجحِ
بين تيهٍ من الشبقْ وبين تيهٍ من الجوع والقلق؟

٤

يقولون لي: إذهب
إنطلق، واترك الطريق لنا،
نبنِ شوامخ المدنْ ـ
من طينٍ يتفتتْ
وعيون تترمدْ
مات بالأمس مئة
واليومَ يموت مئة
وغداً يموت مئة،
ليبنوا زقاقاً
من عصب العين وجلد القَدَم.
ووراء الدروب، وديانٌ فسيحة كالسما
وزَهْرُ آلافِ الشجر

تذروه هبات الرياح.
ولكنهم يقولون لي: لا،
إنما الوديان دروبٌ مدلهمة.
ألا يطأ الظلامُ الشجر
كبيوتنا وسكانها؟
وهبَّةُ الظُهر زعزعٌ من تراب
تنفض عن الأوراق ألوانها ـ

أوَ لم يبق لي
إلا الصياحُ في
حلكة الليل المجرِّحِ بي
بكل مصباح ضرير:
أفأغرق في بئرنا وأنتهي
والشفاهُ على جسميَ تهوي
كالمطارق
والجماجمُ تحت خبزي
كل يوم؟
في المنازل قشعريرة

والمدينة في طلب النوم تبكي
وتئن.

٥

تمعن في الشارعِ المقفر في الظلام.
ترتدي الحوانيتُ ظلمةً
لا نورَ يدركها، والأبوابُ تحمل
مزاليج الرفض.
وعابر السبيل يحدجه الألم
متربصاً في كل باب.
ولكنّ العواصفَ إذ تهب
تُزيح الموتى عن الرصيف وتُطيح
بالمصابيح والظلال
وتَنْسِغُ العينَ والقدم.

إذن هبي يا عواصفُ
وادفعي
أصابع الموت عنّا

وارفعي
عُسُسَ الألم عن كل باب
وأعيدي
صرخة الحياة إلى الحناجر
وإلى الطريق
تهليلة الراقصين.

ألا انزلي
من الذرى والعوالي
حبلى بفيض البحر وبددي
رؤى العفنْ
ولليمّ العظيم افتحي
مصاريع المدينة واطلقي
غاضب الموج على
دور الظلال ليجلو
أرضها والزوايا.
قيودُ الحديدِ
اجرفيها،

قيودُ العظامِ والدودِ
أنزليها إلى السود
من صخور قاع البحر،
ومن أغوار البحر الزرقِ
استنبعي
الخصب لأرضنا
ودمائنا
والنومَ النقيَّ لليلنا
لكي تتفجر الشمس من ورائِكِ
خضرةً وزهراً للمدينة
وضحكةً لسكانها
نسمعها
من كل نافذةٍ من كل حجرةٍ من كل دارِ.

مونولوغ لفاوست معاصر

الكتب
والنساء
وألف عدو وصديق
لم يبقَ لي منها سوى
أسماء ووجوه
في العتمة تغزو
وتندحر
وموج الأيام يعلو
وينحسر، مودعاً
أصداف الحب والحقد
على الجسد
فتدَوّي بأصداء الكلمات.

نفيتني من بلادي
وعمادي
هذا اللسان وهذا القلم
(ومن ورائي مفستوفليس)
مندفعاً، حيث الحياة
في هدير الأبواق والعشاق
الرافعين شفاهاً للشفاه
الراقصين
عبر السدود،
عبر حراس القيود،
مندفعاً، حيث يبيعون
ويشترون
العـطور والقمصـان والكنـادر واللبّـان والسيـارات
والسكـائر والجـرارات والحراثـات والحرائـر والأسنـان
والعقاقير والضمائر،
حيث ينقضون ويشيدون
البيـوت والقبـاب والجسـور والسجـون والمـلاهي
والقصور والمصارف والمواخير والجحور.

لقد خبرت المعاهد والمنابر
والمعابد والمقابر
والشوارع اللألاءة بالزجاج
وما خلف الرتاج
من حكّام وكهّان وعواهر.
ومفستوفليس يدفع بي
شاحناً
كل لمسة مني بسحره،
عابراً بي
مدينة إثر مدينة
عبور الليل، عبور العاصفة،
عبور أسراب السنونو في العشيات الغائمات.

على الموائد الخضراء
أيدي النساء تشدّ على الورق:
«كاريّ، فلوش، آس،
قضينا الصيف في جنيف
واشترينا الكراسي من إيطاليا

وبيتنا السابع استؤجر اليوم
بألف وسبعمئة دينار» -
وعلى الأرض الجرداء
أيدي النساء تشد على الخِرَق:
«شربنا الشاي بلا سكر،
قضينا الصيف نمسح القاع
واشترينا عشرة أذرع من الخام
ورفعوا علينا الإيجار
في الشهر دينار. . »

مفستو!
أتضحك ملء شدقيك
لأن في عبّك الصكّ الذي
وقّعتُه بدمي؟
أما حظيتُ بهيلانه
وعبثت بمرغريت
وألفَ خصر طريّ طويتُ
على ذراعي؟

تهيأ للسفر! بي شهوة الآلهة
شهية العمالقة. هل من جديد؟
سيطيرون إلى القمر
وينزلون الموت مع المطر:
لندن وباريس وموسكو، بطرفة عين
أثرٌ - بعد عين.
ولكن أبي،
ألم يمت جوعاً وسط الغلال،
عطشاً على ضفة النهر؟
هل من جديد؟
ألم يشدّوا بأصابع من حديد
على الحنجرة مني، من أخي،
من ابن عمي، من جارنا،
من كل أهالي حيّنا؟

٥٧٣،٢٧٧ جندياً مزودين بـ ٧٢٣,٤٦٥ بندقية، و٣٦,٠٠٠ مدفع، و٢٤,٥٠٠ سيارة، و١١,٣٤٥ طائرة، يرفعون اسم بلادهم بقتلهم كل أسبوع ٢٦٤ رجلاً وطفلاً وامرأة طالبوا بحق الحياة، على الشطآن والجبال.

٧٦ دولة تتكلم ٤٢ لغة تجتمع لتدافع عن حقوق الإنسان، وتقتلع مليون

رجل وطفل وامـرأة من تُربتهم الخضراء وتقحمهم في الخيـام، بين الصخـور، تحت الثلوج.

في حيّنا كان أعمى
يطنطن على العود ويغني
وبعدها يغفو عليه في فيئنا
ساعة أو ساعتين في الظهيرة.
قتلوه، وفي أمعائه غنى الرصاص
أغنية أخيرة.

وبين الدار والدار كانت
جارتنا الناهد تجري
حافية وراء ظبية هاربة.
نسفوا الدار ليلاً، ولم نجد منها
في الصباح إلا القدم الحافية.

أفي المدن النائحات النابحات،
أسنانها من ذهب
وشفاهها من خشب،

أفي العراقيب من الجبال
أفي الأبعاد واللظى من الفلاة
بين منفى ومنفى
أستعيد الفيء لأعمانا
وتلك الناهد تجري وراء ظبانا؟
فليطيروا إلى القمر
ولينزلوا الموت مع المطر!

مفستو،
أما زلت تفح بالحقود من ضحكاتك؟
أتبطىء الجحيم عليّ،
أم تقذف الصكّ في وجهي؟
تأهب للسفر.
لم يبق من عذابي إلا
أهونُه.

أسوار

تحت الأسوار أسوار
تحتها أسوار،
أور وأريحا، نينوى ونمرود،
وعلى الأنقاض حيث آهات العشاق قد تلاشت
وتلاشت طقطقة أسنان الأسرى العراة،
تلالٌ تخضرّ في الربيع
يأهلها النمل والصراصر، ويأوي إليها
راعي القرية في الضحى

يستشعر بقايا الندى
من بين الخرق التي على ظهره:
تحت زمِكّهِ رأسٌ، رُكَب الملايين له انثنت
وعطّرته أيدي الحسان.

ويلي يا ويلي يا ويلي
قنّعي نوح قلبك بالغناء،
نزل ابنك الوادي
ثم طوّف في القفار،
حيث الحسانُ، متلفعاتٍ بالتراب،
يمشين على الأسوار
تحتها أسوار وأسوار.

وفي الصحاري مدن يدخل قاعاتها
فلا يرى سوى الجدران الطوال
بكوى عمياء مثقبة،
والأرض الرخام تمتد خاوية،
تحت البقايا من أصوات المغنين.
ليلي يا ويلي، راح المغنون
وراء الروابي، حيث النمل والصراصر
والملوك المرمريون ينتظرون
ولا أمل، وروث الحمير يكسو
تاريخ الدول وذكرَ الفتوح وسفكَ الدماء.

قنّعي الشوق، ألا قنعي،
شوقَك وشوقَ البنين الآخرين،
تحت أقدامهم شبق السنين
يعدو لحمهم، منطلقين
بين الأسوار وهي تنهار،
يجمعون ريّان الشفاه
في كؤوس من خزف،
ويقطّرون عصارة الشريان والوريد
ليرسموا شهوة الليل بها
على صفحات من حجر:
النسر يصيد الشمس بمنقاره،
وتَدُرّ الأفعى بحكمة سمها.
قَنّعي الشوقَ، ألا قنّعي،
والبسي أساور الفضة والنضار،
أساور الشوك والعلّيق.

أور ونمرود، والبغايا المقدسات
في هياكل بابل وببلوس

يقدّمن للغرباء أجسادهن
لتخضرّ الروابي (فوق أسوار المدن)
وترتعشَ السنابلُ بالذهب، والشقائقُ بالنجيع
تحت مخالب الحدأة والغراب.
شفاه الثيّبات والأبكار عطشى
(ألا قنّعي جوعك قنّعي)
إذ يطول الليل على الأسوار
تحتها أسوار
تحتها أسوار.

هذه النمرة عيناها جمرتان

هذه النمرة، عيناها جمرتان
في غابة خضراء،
تنساب من بين الأوراق
أطرافها الطويلة الملساءُ
كالماء.
أيُّ ضفة تتلقى قدميها
عند الضحى وقبل المغيب؟
وفي المساء المحشرج بالغبار
أيُّ خمر تحتسي:
وفي جُنَّة الليل أيُّ وجيبٍ وغمغمات
تداعب الغفوة من أذنيها؟

حُلمٌ... حلمٌ ورؤى ترفّ على

فدون الوصل منك
آكرون وأسوارٌ من نحاس
وكلبٌ رؤوسه الثلاثة تعوي،
ولكن بغنائي
أبلغ الشفتين منك، بغنائي
ينبض الياقوتُ عبْر الموتِ
ويحيا الحجر.

أغنية لمنتصف القرن

مخالب الليل في أشلاء الشوارع
تنهش، والنوافذ تدمىٰ بمآقٍ من حديد،
والناس فوق الحصى يتمزقون
تحت العجلات ووقع الحوافر.

في عينيك عواء الثعالب
وورد يديك يخفي العقارب.
والليل إذ يتهاوى
يذرو تراب الجوع بين الضلوع،
والدخائن تتلاطم بين شطآن الكؤوس.

هاتي قدميك رخاماً من جهنم
تقدّه أزاميل الأصابع.
شبعتُ كلاماً، وتقيأت أحلاماً،

هذه البطاح المديدة
هذه الطُّرُقِ البلهاء الطويلة
رَصَفتْها أعينٌ صفراءُ لا ترى النار
في العين
ولا التهابَ الأصابعِ إذ تجوس
أغوارَ الأحراش المظلمة ـ

ولكن ما أبدع أطرافَ هذه النمرة
الطويلةَ الملساء،
وأبدعُ من الأحلام، عيناها.

ياقوت وحجر

وجهك مرمر.
أأذكر فدْياسَ وبْرَ كسْتليس؟
فهذا الأنف إغريقي
وهذا الفم سَوّتْه أثينا
والحدقتان حيث التقت
بغداد وسومر
بيورديسي
تتهجآن حبًّا وفجيعة.

وجهك الصِّبى الأزليّ
صارخاً فوق الألم
مرمرياً يتصدَّى للشفاه
رمزاً وحقيقة.

واليومِ يهاجم اليوم، والساعات كالخناجر.
وهل أُفيق كل صبح على عيون خامدة
تُقدِّم لي مع الفطور
وقطعٍ من الشمس تلوكها أسنان الشتاء؟
في شعرك حرير صارخ، وفي يديّ
ظمأ قديم، وإن تقطرِ الأكاذيبُ دوماً
من شفتيك مع الصبح اللئيم والليل العقيم.

تعالي وهم يتمرغون تحت الحوافر.
لقد رأيت الكهوفَ تتفجر ناراً قرب الجسور
والكلابَ تلعق جروح المتساقطين،
ورجلاً يعرق عَظْمةً ويهفو إلى
عيون المهى ولثم العذارى وسب العابرين.

فاضت الأنهر بالجماجم.
ولكن في الربيع اقتطفنا الشقيق ودسنا السنابل،
فشَعّ حذاؤك الرخيص كالزمرد.
ولكن هذا دم على قدميك من الشوارع

حيث كان الليل من جوعه
ينهش لحم الثرى وثلج الحناجر.

تعالي لتنهي الحنين في شفتيك المضمّختين.

الشاعر والنساء

أيتهنّ، أيتهنّ؟
وأنا ما زلت في تطوافي بينهن،
والشمس دافقة فوق أشجار النخيل.
والشفة العذراء تصيح:
«العشق في الجسد، في اللحم والعظم»
والشفة الفاجرة تلغط
عن رعشة الروح
أيتهنّ؟

أتلك التي تقذف الماء بحفنة من ماس
فيشعشع،
أم تلك التي بضحكةٍ سمراء منها
تُبرّد حرّ الظهيرة،
أم تلك التي تستعيد رقصة الأمس

بغمزة عين وإيماءة يد؟

(خدٌّ من لهيب وخدٌّ من دخان
وللضحك رنين كالذهب.)

ألست أُوَشّي الأكاذيب لمتعتهن،
فأكسو الجرح بثوب من دمقس
وعلى الأسنان العارية أضفي
شفاهاً كالكرز
واجعل يومهن الوني‌ء وراء الستائر المسدلة
يفر فرار أحلام الصباح؟

وإذا ما انصرفتُ عنهن واحدة واحدة
وفتحتُ نافذة تطل على صفرة النهر،
وأبصرت عظمةَ ساقٍ قد غُرزت
في ضفة الطين، وغراباً يهوي
ليحط عليها أقحوانة من منقاره،
ولجّ بي السؤال:
«أيتهن؟»

بماذا أجيب؟

أأروي كيف دنت بوجهها
وشفتاها كأسٌ من الياقوت
نُقش فيها إله الحب
مقيداً بالسلاسل،
وكيف انتظرت الثانية في ظلمة دارها
وعلى شفتيها إلهة الليل لا تخشى
إلا صراحة رابعة النهار،
والثالثة كيف تلألأ اللفظ بين شفتيها
كشظايا الزجاج في ليلة مقمرة؟
«أيتهن؟» والغراب يهوي
على ضلوع لا لحم عليها
ويزرع الأقاحي في عيون الجماجم.

لقد رأيت عيوناً كهُوِيّ لا قرار لها
وعيوناً كالزخارف الأندلسية.
رأيت عيوناً تجمح كالخيل

أو كالنمور تُغير.
(شفة من نار وشفة من رماد)
رأيت عيناً تبث الشهوة خلسة
وعيناً تُغلق الأبوابَ عما وراءها،
عيناً تمد الأهداب كأيد مستنجدة
وعيناً في وَقْدها نصلٌ يَشِعّ
(والدمع ساقية في الطين).

أيتهن، أيتهن؟
أتلك التي لبست جلباباً أسود معلنةً
الحدادَ منذ أن نهدت؟
(عين من نار وعين من رماد
والدمع ساقية في الطين)
أتلك التي رفعت النقاب عن وجهها
فرأت حولها طوقاً بعد طوق من حديد؟

(يد من نار ويد من رماد
والدمع ساقية في الطين)
أتلك التي وراء الجدار المهدّم قلت لها

«حديقة اللّه في هذا الجسد»؟
(نهد من نار ونهد من رماد
والدمع ساقية في الطين)

أيّتهن؟
ما نفع السؤال والحدائقُ اصفرّت حواشيها
وعشرُ شموسٍ قد نضحت
بجراثيم تنصبّ على سباخ الحقول،
وضفافُ الأنهر قد نمت
عظاماً بين السنابل.

لقد جاء عبر النهر غراب
نزع الجلد عن الرأس
ورفع اللحم عن الصدر، ونسي
أن يترك بين الضلوع أقحوانةً
ولو واحدة.

طير على السطح

ينعق الطير وقد رسا
على السطح منتظراً
بروز يدي،
وأنت غائبة في النوم
بين شراشفٍ
طوت ما بينها جدبَ النهار
وبحةَ الليل الذي
ما كفَّ عن اليقظة في صمتِهِ.

والطير ينعق للشمس
عن شوقِهِ ـ
صوتُه القاطع في محجريَّ كأنه
يشحن رأسي بحقدِهِ ـ وأنا

أنظر عبر السطوح إليك وقد
لملمتِ أشتاتَ ألفاظي
حول صدغيك لكي
تدفني فيها صمتك،
والطير ينعق جاثماً
متلمّظاً بنطقهِ، لظنهِ
أن في عينيك وعينيّ وليمةً لظُهرِهِ.

قصيدة

سيدتي،
في الربيع حلمنا
(وفي المحْل حلمنا
بالربيع) نمنا
تحت أفنان رماناتنا
تحت أفنان الصنوبر نمنا
في الشباك الخضر على البابُنَّج
والأقحوان، صيادُنا الضاحك عشقٌ
كان يغني
للشموس النواعم والصَّبا،
وأسِينا لرَيّا ولليلى الباكية
(وحالت بنات الشوق يحننّ نُزَّعاً)
إذ رأينا النسيم

من الساقين والنهدين يصنع
ما رآه بوتيشلّي طالعاً من الثَبَجْ
بغدائر كاللهيب ـ
واخجلاه!
قضى الشعراءُ حبًّا
وكل ليلى
قضت حياتها بالبكاء
إلّا كلينا ـ في الربيع يا
سيدتي،
قبل أن ترفع عشتاروتُ صوتها
والماه بالنواح.

في المحْل حلمنا بالربيع
أشهرا حرّى طوالْ
واستغثنا بالمطرْ
ولم ننم،
نستصرخ العشق القديمْ،
ولما أمطرت، كان المطرْ
والماه، دمعاً ودمْ.

أرق سعاد عبد الرحيم

في السواد من مخمل النهر البعيد
أنوارٌ كالابر
تُعمل وخزَ شعاعِها في حديد
الشرفة من بيت قديم
فوق سيل الضاحكين الشاتمين،
ولفحُ اللهاث من باب تلو باب تلو باب ـ
من بقايا القيظ في أرض يباب ـ
ملتقاها سعادُ عبد الرحيم
في أمسيات تتوالى.
على الحديد سعادٌ تتكي،
تختلس اللمساتِ ظناً بيديها
بجنبيها، بساقيها
(«لكنني أخشى أن يَروْنا ـ وإن يرونا!»)

والغُلَواءُ من ضجيج الدرب
تدق كالحمى وراء صدغيها.
«استقرّي، استقري!» ويداها
على الحديد تختلسان اللمسات
من يدين عشيقتين، ومن
شفتين رَيّقتين، شفتاها.
فتنطلق من بين صيحات العابرين
لفظةٌ ـ رشيقة كالسنونو
رفيقة كالوشوشة،
صخّابة كأنها انقذفت من ألف مكبّرٍ على أذنيها.

على الحديد تشتد يداها.
«شوقي الأليم لذيذ المذاق
للفم النهّاب خلف الباب
أو تحت الدرج . . .»
(وتزعق سيارة وتهلّل أخرى)
وتكاد سعاد تضمّ اللفظةَ مرتين براحتيها.
«. . . ولأمتْ، ولتقطّعني الجماهير،

إن شئت لي ذلك. . .»
والأضواء مغروزة في اسوداد النهر.
«فلأنسحبْ. . .» وتتشبث بالحديد
ثم تعيد: «فلأنسحبْ لمخدعي، وأسدَّ النوافذ».
ولكنها وان تعتصم
بأحصن الأعماق من بيتها،
لا تنام.

ألن تنام سعاد؟
يركد الدرب ويخلو
واللهاث يغيض في مغلق الأبواب،
ومن بعيد
في حافة الأرض اليباب
يلتهم النهر أنواره،
وسعاد تعشعش الأحلام
في مقلتيها
وتفرفط ساقطةً
لتموت بين يديها.

بيت من حجر

(Variations on a Theme)

١

بين الليل والليل
ظلمة الستائر، والسكائرُ تومض
وتتلاشى رماداً
والخادم ينقر الباب: «اثنين شاي؟»
والركبة السمراء ناعمة لليد والشفتين
تهدهد كل حسٍ، تبلسم كل ذكرى،
سوى الذكرى التي تنحسر عنها كل لمسة
لبيتٍ من حَجَرْ
على درجاته البيضِ استفاقت
زهرات الجرانيوم.
(أما يزال على التل رافعاً
أقواسه الثلاث، أم أنه

ركام من خرائب، للجُرَذ والعناكب،
وأخضر القُرَّيص مكان الجرانيوم؟)
مرة أخرى!
سيقرع خادم الفندق الباب، سيكتشف
نهدين حاسرين.
سألبس معطَفي وأنطلق
إلى الرواق، إلى الدرج، إلى الرصيف
وأرى الحفاة يلوحون بأوراق
اليانصيب: «خمسة آلاف دينار، خمسة آلاف دينار!»

في آخر النهار، عبر الدكاكين
ومنازل الطابوق أرى
الزهور الحمر على درجات بيتنا البعيد
في رأس التل.
وفي المقاهي ألوف الرجال.
ألوف العيون الساهمة والأيدي النائمة،
ألوف الشفاه الزاعمة.

«في الفراغ، رباه، جد علينا
بنعمة الامتلاء.
في ساعة الذكرى جىء إلينا
بحقنة النسيان.
في الجوع أنزلْ علينا
فواكه الوهم».

٢

بصَّارة، يا بصَّارة
في منبسط اليد المخطط ماذا ترين؟

بختك مبخوت على ورق التوت
عدوك يموت
قل إن شا الله...

في هذه البشرة التي تيبّست
من الكؤوس والفؤوس؟
أخطار... أسفار...
مكاتيب... أخبار...

عرّافة، لا تكذبي، ماذا ترين،
في هذه الحفنة الغضينة،
هذه الأصابع الثخينة؟

مآتم وأعراس. . .
سمراء تحبك، وشقراء
عبر البحار. . .
دنانير. . . إفلاس. . .

في هذه العظيمات المكوَّرة
المتآزرة المتآمرة
إثر الملائكة محوِّمة
إثر الذباب مهوِّمة
تحلل الحب والموت
إلى معانٍ
كالنقيق
في النزيز
في ليالي بغداد الصائفة؟ ـ

في التلال الخضراء بيوت
من عنبر وياقوت

وبيتنا في رأس التل؟

حجرٌ على حجرْ
أبيض في شمس الضحى
أخضر في ضوء القمرْ

وحول البيت؟

شوكٌ ودم.
علّيق وسم.

٢

يوم جاءنا الموت يزورنا ـ
كنا ثلاثة، في ليلة أطل من قمتها
قمر كبير كأنه قد قُدَّ من الجليد،
مرتمين على بطوننا وراء صخرة،
نتفحص من بين التراب الأفقَ اللدود،

وبين أيدينا البنادق.
أطلق العدو رصاصة، ثم أخرى، ثم أخرى،
تَوِنّ، فيرجّع الوادي صداها.
وقال واحد منا:
«لم تبق في الدنيا حقيقة سوى
هذا الجسد، وللذئاب أن تنهشه،
وذلك البيت الذي رغم الجبال التي بيننا
أراه مشرئباً بين الشجر، حيث العدو
يقطف رماننا وتيننا.»
وفجأة ارتقى الصخرة، وعليها
انتصب كالمارد ورش النار
على العدو.
ورأيناهم يسقطون واحداً، واحداً، واحداً،
وشقَّ الزعيق ضوء القمر.
وزحفنا مسترجعين عشرة أمتار
من أرض الصخر، أرض العنب،
أرض الذهب.
ولكنّ الموتَ كان قد زارنا.

سمعنا شهيقاً من التراب،
لهاثاً يتصدع الصخر عنه.
صَمَت الرشاشُ وقد استحمَّ
بدمْ
وانقطع اللهاث والشهيق على
«بيتنا ـ»

٤

بيتنا في رأس التل
حجرٌ على حجرْ
أبيضٌ في شمس الضحى
أخضر في ضوء القمرْ.

وبين الليل والليل لا
نعرف إلا الانتظار:
رباه، جد علينا،
جد علينا،
بنقمة الانتظار.

قبــية

[ذكرى وحشية الضباع السارحة
في فلسطين عبر الأسلاك الشائكة]

رصاص
في مقمر الليل
عبر التلة والطريق،
رصاص
على الجدران يصطك
ويقرع الأبواب والنوافذ
يطلب الأمعاء والقلوب،
رصاص
من خلف الحجارة، عبر الفجاج،
من وراء أكياس الرمال،
رصاص
ينثر في الحجرات رياحيناً من الدم
ويلصق زخرفة الدماء على الجدار،

رصاص
وجلغنايت
يقذفان بالأجساد إلى الضباع .

القمح زرعناه لا لنحصد
والعناقيد سقيناها لا لنشرب
وليلنا عبثاً قد استحم بعطر البرتقال.
دمنا في التربة الحمراء يجري
وعلى الصخور،
وأيدينا ابحثوا عنها تحت جحافل النمل.

أغلقوا الأبواب
أحكموا النوافذ
صُدّوا القمر
إمنعوا الليل،
ولكنّ الأبوابَ من خشب،
والنوافذَ صُنعت لا لتصدّ
الهواء والقمر
والجلغنايت
وأنيابَ الضباع .

والقلبُ حديد،
ولكنه للرصاص والجلغنايت والأنياب
أوهى من الخشب.
ذراع فاطمة حول حسن
وحسن نَضْحٌ من الدم،
وأبو حسن لم يبق منه
إلا قنباز من خِرَق،
إبحثوا تحت الحجارة عنهم
واجمعوا الذراع إلى الجسد.

القمح زرعناه لا لنحصد
والعناقيد سقيناها لا لنشرب
وليلنا عبثاً قد استحمَّ بعطر البرتقال.
دمنا في التربة الحمراء يجري
وعلى الصخور،
وأيدينا ابحثوا عنها تحت جحافل النمل.

رصاص
يصكّ الحجر

وجلغنايت
والليلُ يتلوّى مِزَقاً
بين زيتوناتنا ودوالي العنب.

خرزة البئر

[في مذبحة دير ياسين ألقى العدو
بجثث الذبيحات في بئر القرية]

خرزةُ البئر،
ملتقى أيدي الصبايا العابثاتِ
بالدّلاءِ، الساكباتِ
ينبوعاً في الجرارِ
بين ضحكٍ وغناءٌ،
أفمَ الرمسِ أضحت
أفمَ الفناء، يُلْقَم بالصبايا
بالحبالى الساكباتِ
الدمَ الملوّثَ بالرصاص؟

أجفّت العناقيد من حولها
واحترق القمح واندلقت
قِرابُ الزيت على بديد الحجارة؟

وعليها صُلب عيسى من جديد؟

خرزة البئر لنا جلجلةٌ ثانية.
من ثغرها الخضيبِ ستنطلقُ
الحممُ السوداءُ لاهبةً لاظية
بلحم الصبايا والحبالى
لتُبيد
زارعي الموت
مطعمي العقبان في أرضنا،
وعندها من فيضها القُدُسيّ الخصيب
ستُحيي، ستحيي
كلَّ قرانا من جديد.

في بوادي النفي

في بوادي النفي ربيعاً تلو ربيعْ
ما الذي فاعلون نحن بحبنا
وملء عيوننا الآن ترابٌ وصقيع؟

أرضُنا فلسطينُ خضراؤنا،
كالرسم على بُرُد النساء أزهارُها،
آذارُها يرصّع الروابي
شقائقا ونرجسا،
نيسانها يُفجّر السهولَ
نوّارا وعرائسا،
أيارُها موّالنا
نغنيه ظهراً في الظلال الزرق
بين زيتون الوهاد،

نترقب في نضج الحقول وفاءَ تموزَ
ورقصةَ الدبكةِ في الحصاد.

آيْ أرضَنا، حيث صبانا قد تقضّى
حُلُماً في ظلال البرتقال،
بين لوزات الوهاد ـ
اذكرينا الآن مطوّفين
بين أشواك القفار
مطوّفين في صمّ الجبال،
اذكرينا الآن في
هُوج المدائن عبر البوادي والبحار،
اذكرينا وملء الأعين منا
غبار لا ينجلي من سرعة الحِلِّ والترحال.

سحقوا زهر الروابي حولنا
هدموا الدور علينا
بعثروا الأشلاء منا
بسطوا الفلاة أمامنا
وإذا الوهاد بحشاها تتلوى

والظلال الزرق تتصدع شوكاً
أحمرَ ينحني
على جثثٍ بقيَتْ نهبَ العُقابِ والغراب.

أمن ذُراكِ غنّت الملائكُ للرعاة
أنشودة السلام والمسرّةِ للبشر!
لم يضحك سوى الموت إذ رأى
بين أمعاء الدواب
أضلعَ البشر،
وخلالَ قهقهةِ الرصاص
راح يرقص دبكةً
على رؤوس الباكيات.

زمرّدٌ أرضُنا ـ
ولكن في بوادي النفيِ
ربيعاً تلو ربيعْ
لا يفحّ إلا النقيعُ في وجهنا.
ما الذي، ما الذي فاعلون نحن بحبنا
وملء عيوننا، أفواهنا، الآن ترابٌ وصقيع؟

في يوميَ ذاك الأخضر

لسدير وياسر

في يوميَ ذاك الأخضرِ
إذ كنت كالعود الطري
أخضرٌ يومي وليلي
بينَ فروع التينةِ
آكل التين الندي
مع رفقتي الحفاةِ
(أقدامنا صخر مرمري!)
وأبو خليلٍ يصيحُ
راكضاً في قنبازه
في إثرنا
وسوطه في يده:
«والله لأذبحنَّكم!
أكلتم التوت والتين،

وقطّعتم الجُلنّارا
والله لأذ. . . بـ. . . حنًّ. . . كم. . . !»

ها! في يوميَ ذاك الأخضرِ
ورفقتي رغم الغبارِ
وجوههم كالجلنارِ
كالطيور يرفرفون
كالشياطين الصغارِ
على أشجار الحواكير
عند أبواب الدكاكين
يلغطون، يسقسقون،
ومن جيوبهم الخالياتِ
يوزّعون الضُحْك بالحَفَنات.

في يوميَ ذاك الأخضرِ
أخضرٌ يومي وليلي،
أخضر بيتي وحقلي
فيه عشر دوالٍ ولوزتانِ
في الربيع تتفجران

بزهر كخدودنا
كالخدود من جاراتنا.
نقضي النهار في الوادي
تحت زيتوناتنا
ننقف العصافيرَ
بين حسّونٍ ودوري
وإن دَمِيت أقدامنا
من الشقائق والصخورِ
عدنا إلى اللوزتينِ
الزُمرُّديتينِ،
بصيدنا الضئيلِ
وظلنا الطويلِ.

في يوميَ ذاك الأخضر
أخضرٌ يومي وليلي،
وأبو خليلٍ يصيحُ
برفقتي الحفاةِ
المجنحين بالضحكاتِ،

وأمهاتُنا
الرافعاتُ الوردَ في الخدودِ
يقفن في طريقنا قائلاتٍ
«يا شياطينُ تعالوا
واحملوا السلال عنا!»
فنحمل السلالا
وراءهنَّ ونصعد التلالا،
لنُنقَد ـ مما في السلالِ
فستقاً أو برتقالا!

في يوميَ ذاك الأخضرِ
وكل ما في بلدتي
كغُصنِ لوزٍ مزهرِ،
وأبي واقف كالشجرة،
يفيئني بمنكبيه،
يلقمني من مقلتيه،
وطراوةٍ من شفتيه.

توفيق صايغ في أكسفورد ستريت

حَفِيَتْ قدمايَ، وفي ركبتيّ
قد غنى الألم، متسكعاً
من رصيف لرصيف، متمنياً
لو جمعت أفواه النساء (كبايرون)
في فم واحد أجمع شفتيه
الفاكهيتين في فمي، وأنا
عارفٌ بوهمي العسلي، لامساً
بكفّيَّ هاتين شهوة الأجفان الكحيلة.
من رصيف لرصيف، والظهر يصيح بي
والشمس تصيح بي، وكل عين
وكل ساق وقدم،
والليل في غرف الفنادق المستطيلة
والسرير المزقزق والنوافذ

الفواغر نوراً ـ كلها تصيح بي:
فرشنا الطريق بشعر الكواعب.
هاك أفواهاً فغمت
بصامت الأحلام والرغاب. . .

يا راحم العباد،
الليل قبل النوم
كالثعبان طويل،
وأنا أتغنى ببروميثيوس
وأندب نفسي في أكارس
والأسنان اللؤلؤية تلمع لي
بين شفاهٍ
لوَّحت لي بالجنون.

سلوقيّ السماء في إثْري،
والطريق لا ينتهي
إلا لطريق، وعبثاً ألعب «الغماية»
مع من كان يراني على ضفاف طبرٍيا
وفي ملاعب الكلية على جبل المكبِّر

أينما اختبأت في تلافيف ظنوني.
ولكننا قد تهادنًا.
وإن يكن عند لقائنا
على ضفة «الكام» قد لوى ذراعي
بمصافحته ـ ولكن
قد تهادنًا.
ولم أعد أخشى الناب المفاجىء
على سلالم أجواف المحطات
أو عتبات المكاتب السوهوية.

أعطني شهوة الجفن الكحيل
في النصف بعد الخامسة.
لقد لمحت يد المركيز دي ساد
تمتد من المنعطفات،
ووراء السلوقيّ رأيت
لحية «الستير» الضاحكة.
من رصيف لرصيف،
في رقصة مستطيلة الايقاع نمشي،

في رقصةٍ كالسَرَبَنْد، في بطنها الأمْلسِ
حسّيةُ العاشق بين نهدين
قبل وقوع النزوة الأكيدة.

والكتب ـ أليست من النوافذ تعوي
مع الشمس الشحيحة والمطر العنيد،
وتلوّح بالجنون كلمعة الأسنان اللؤلؤية؟
فليضحك «الستير»، فهو أكثر من صديق،
وليطرقع ظلفه المشقوق
خلف أظلاف الضباء
من رصيف لرصيف.

يا راحم العباد ابتسمْ، ابتسمْ.
لقد سئمت وجعت. أين «البولفار»؟

لندن، حزيران، ١٩٥٨

إكارُس

إكارُس، يا
عاشقَ الشمس، يا
قتيلَ النور، يا
رافع الأرض إلى السما
يا واقعاً على الصَّخَرِ
في البحر اللعين وقد
فديتَ تجربة الإنسان
بدم الصِّبىٰ -
من السراديب صعدتَ
من السراديب حيث صنعتَ
من نافل الريش عنفا
رافعاً إلى السما،
من تلافيف المتاهةِ في الأرض

في العين والحشا،
من متاهة السراديبِ
والجدرانِ السامقة،
حيث الظلامُ ونفيُ الحياة،
ونفيُ اليدِ العابثة،
من السراديب صعدْتَ يا
إكارُس، مثلنا،
بنافل الريش مزوّدا
في انطلاقة المتمرد نحو حتفٍ
من الشمسِ من النارِ
من الموج المهلل والصخور التي
قتلتك ـ ثم بكت
أوصالكَ الطرية.

غنِّينَ
يا عابثاتِ البحرِ غنينْ،
وارفعن فتانا من حطام جناحِه
بين أذرع ملساءَ حبيبة.

فهو منا:
في شَعْره أحلامُنا وفي
عينيه قد جمدتْ رؤىً
من عشقنا، وفي
شفتيه صرخة الوادي
للحجارة والشجر.
في شَعْره وعينيه وفمه
قبلاتنا، قبلاتُ الصبايا
الطويلات أصابعهن
المشدودات نهودهن،
وبينه وبيننا صِلاتٌ
من الموت، من الموت في الشمس
في بؤرة النورِ في
بؤرة الظلامِ

(أنا لم أسعَ إلى الخلودِ، لا
لم أعش إلا
للفناء)

فلنملأ الوادي صراخاً
ولنملأ البحر ولنملأ الأرض والسماءَ
صراخاً، من القرى الطاويه،
والشوارعِ الشوهاء
متلويةِ الحشا،
من مقاهي الليالي اللاهبه،
ومنازل الطينِ
على الغضينِ من الجسدْ
كبثورٍ من صَديدْ.

اللهُ يا اللهُ، رأفةً بعبادِك،
نحن الصائحين في الوادْ،
النافخين في الرمادْ،
الباحثين في المتاهةِ
عن طيور الانعتاقْ،
نصنع الجناح من الورقْ،
باسم ربنا الذي خلقْ.
يا إكارُس طِرْ وقَعْ

من حضن الحبيبة الغادرة:
فالبحر من المتاهة أرحبْ،
لا يلوّح بالسلاسلِ والبنادقْ
ولا يقيم الزنازنَ والمشانقْ.
جدرانُه البعيدة مطالع القمرين والنجوم

غنّين يا نواهدَ البحرِ غنينْ
واغمرنَ بالقبل وجه إكارُسْ،
ولتحنُ على جراحه صدورُكن.
من نَضْحها يحمل الموجُ
مع السحب الهامياتِ
إلى الشوارع الشوهاء
وقُرانا الصادياتِ
ذكرى السنابل والشقائق المترعاتِ
بالشمس بالشمس بالشمس.

العودة إلى المدينة

بعد الذهاب والإياب
في مسارحَ من جفافٍ وعدمْ،
والنفسُ تدور في رقصها المكرور
حيث النغمْ
يتلوه دوماً بالي النغم،
والشمس والقمر
ورقٌ مضاءْ
وقناعٌ كلا الضَّحِك والبكاءْ:
بعد الذهاب والإياب
من مسارح الجفاف والعدم
جئنا ـ
إلى المدينة:
أمدينةِ العشاق

أم مدينة السُرّاق والخبايا،
أمدينة الراقصين
أم القاعدين القرفصاء
في الزوايا؟
منهكي الأعضاء جئنا ـ
فترونهم يحتضرون مذَهبّين
معطّرين بين أحضان النساء،
وكبيراتُ النهد والعجيزة في النهار
يطلبن لليل عشاقاً صغار؟

سئمنا النغم
يتلوه دوماً بالي النغم
في مسارح من جفاف وعدم.
جئنا
للرشيقات الطليقات
السيقان والضحكات
المهفهفات الخواصر
المتحديات بالحلمات

الطائشاتِ بالأرداف
والحواجب المقوّسات
المفضضاتِ بالقمر
المسْمَرّاتِ بالرياح
الراكضاتِ على
عيوننا، شفاهنا
المستنبعات النارَ
من عروقنا، المجحفات
بحقوقنا
الرافضات مرّه
المعطيات حين غره
ولائم القبلات
واللمسات ـ
سئمنا النغم
يتلوه دوماً بالي النغم
في مسارح من جفاف وعدم.

أنقروا الدفّ، جئنا

هللوا بالناي، جئنا

أعقدوا الأصابع، جئنا

زوابعَ رقصٍ وغنا

وحياتنا في الكف منا والقدم!

المدار المغلق

١٩٦٤

البــوق

لو كنتُ حملتُ بوقاً على فمي
وبه كهربتُ صيحتي،
لكانت منيَ حتى النحنحهْ
خدينةَ الزئير من الأسدْ.

ولكنني، كأهل جبالنا،
ما زلتُ أوثر صيحةً
من على الصخرة العليا،
صيحةَ الحنجرة،
على آلة تباع وتشترى.

البوقُ هو النفاقُ
ينصاع لكل خديعة.

امرَأة في عَاصِفَة

سكونٌ من رمادْ.
أنفاس السماءِ
كالهمسة البحّاءِ
بعد الرقادْ ـ
نسيم كالزفيرِ
في الرئاتِ منَ الشجرْ ـ
كالصفير
في الدروبِ الدانيات
في الدروبِ النائيات
كالنذيرِ رياحٌ
في ممرات الجفاف
وفي الغارة العفراءِ نخيلٌ
يشهقُ،

يزعقُ، يتلوّى
وغيمُ الرمال يهمي
بالرمال على
عباءةٍ سوداءَ
تطيرُ عن
فستانٍ
أحمرْ
وكاحلٍ أسمرْ

أهربي أهربي!
أنيابُ الكلاب
تسيل لعابا

زجاج النوافذِ
يصدّ الترابْ ـ
أما الكلابْ ؟

وردةٌ حمراءُ
على الترابِ

سقطتْ وردةٌ
حمراءُ كالفمْ

ومن السحابِ إعصار
يمج الغبار
ويعوي
بحلقٍ أجشّ
برّاقِ النياب

حتى -
تسقطَ
قطرةٌ
من طينْ
من ماءْ
من مطرْ
قطراتٌ
من مطرْ
تزلقُ
كالكراتِ

على
عباءةٍ
سوداءَ
أحاطتْ
بفمٍ
كالجرحِ
أحمرْ

أهربي أهربي!
كلانا تشهقُ
تشبقُ
للفمِ الأحمرْ
والكاحل الأسمرْ
في المطر الأسمرْ

نَرجس وَالمرايَا

خُطى الليل في رأسي عنيدةً
تدق المطارق،
والمرايا تسمع الدقَّ، تراه
في عينيَ الكحلاءِ، في
فميَ العريضِ، تقولُ لي:
«في سرير عينيكِ يركضُ الليل دوائرْ
وعلى التّيه من شفتيكِ ليلُ
من غرف النوم المقفلاتِ
والفحفحاتِ الهوجِ الحوارقْ.»

صَفَفْتُ شعري فوقَ عينيَّ وقلتُ
أنا الحسناءُ، ربةُ الغواني،
رقابُ الرجالِ التوتْ في إثْر كعبيَّ

وما شفقتُ على أحد.
شفاه الليل فحّت حول نهديَّ،
ولفلفتُني في فراشي من فرعيَ حتى القدم.
وقالت المرايا (ملأتُ بيتي مرايا):
«غديرُكِ الغدّار نحنُ، فاحذري».
وبين القدمين منّي نمتْ عشر زَهرات
اشرأبت بأعناقها، وما سقيتُها.

شعري فوق عينيّ إطارٌ
أسجن الليل فيهِ وهو يدقُّ
يدقُّ في رقصةٍ لا تنثني،
وذراعه حول كتفيّ في انزلاق.

وقالت المرايا:
«نعومةُ العشرينَ يغرقُ فيها
عُتُوُّ ليلٍ أسودُ الجدائل.
يا للفضيحة! افتحي الباب واخرجي!»
ولكنني أدرتُ المفتاحَ في الباب قَفلاً
وعدتُ إلى الشراشف البيض البوارد

وقلتُ: لن تراني المرايا هنا.
عشيقي هذا الفراغ المطلُّ
أهديه الإهابَ بالعطر محمَّماً.

والليل ما انفكَّ يدق في رأسي أغاني
ترجّع وقعَها مراياي الغادرة،
مراياي الحبيبةُ الغادرة،
أراها ولا تراني.

أركضي أركضي يَا مهرَتي

أركضي أركضي يا مهرتي،
حيثما الوجهُ قفا
والليلُ تعلنه ساعةُ الظهيرة.
إلى الأمام، إلى الوراء، اركضي،
ما هَمّنا أن يشيرَ السهمُ
إلى هناكَ، إلى هنا،
والسِّهامُ خدعةٌ جميعُها
في مدار الأفقِ.
أركضي أركضي يا مهرتي
قطاراً جُنَّ سائقهُ
يَصفُرُ في جُنّة الليلِ
من فرحٍ، لا لشيءٍ،
من فرحٍ بالمتاهة، يا مهرتي،

واصهلي، وهللي،
لا لعشقٍ لا لشيءٍ،
راكضةً نحو المنيّة هللي،
نحو الولادة هللي.
الضبعةُ تعوي شبقا
والناهدُ تزعق أرقاً
على صفحات من قصةٍ
دستِها بحوافرك،
وقصيدةٍ أفرغتِ عليها
من سخيّ مثانتك.
فاصهلي، وهللي،
واركضي.
بين الرماح أركضي،
بين أسنان القتَلة، يا مهرتي،
فوق وجوه القتلى أركضي
وإن يكن القتلى آباؤنا،
والقتلة ـ رفاقُ الطريق همُ القتلة.
أركضي أركضي

من جوعٍ إلى جوعٍ ،
ومن جوعٍ إلى نهمْ
وحمحمي وتمنّعي ،
من الردفين بُثّي غوايةً
وبُثّي الفراغَ وبُثّي السأمْ .
واركضي اركضي
بين جدرانٍ لا تنتهي .
حفرةٌ في المنتهى
هي نفسُها في المبتدا ،
وعلى الطريق لتوهمَ الساري
حُفرٌ - فلا تتوهمي :
لن يستقيم السراطُ
في الصبح ولن
تبلغَ الشعابُ مغاني
بمنزلة الربيع من الزمانِ .
فإن وقفتِ بي يا مهرتي
فعلى الأطلال قفي
حيثُ القلاع تصدَّتْ

لمتعتي ـ عاشق الأطلال أنا،
عيونُ الراقصين فيها
ترفرف من صدوع رخامها،
ورؤوس الظافرين تطلّ من
شرفاتها مقنّعةً
بوجوه خمسين ألفَ قتيل
أو سبعين ألفاً، أو ألفِ ألفْ
(من يتقن العدَّ في المتاهةِ
يا مهرتي؟)
هناك هجرنا شفاهاً ونهوداً
لذعةُ العشرين فيها،
فوحةُ الصنوبر في أول زخات الشتاء.
ألم نزرع الحجارة قُبُلاتٍ
ونسفحِ الشهوةَ ليلاً
على الخرائب، والموتُ
من كل صوب يصيح بنا
كأغاني السرينات؟
فإن وقفتِ، قفي

قليلاً حيث الشفاهُ
من النهار أعندْ
ومن رؤوس القوّاد أبقى
وفوهاتِ المدافعْ،
ثم اركضي،
إلى السهول، إلى الفجاج، لتعودي
إلى الشوارع العجماء
فيها المذياعُ يعوي
جنازةَ الأحياء للأحياء.

يوميات من عام الوباء

١

وهكذا انتشر الخبرْ.

على الرصيف حفاةٌ يضحكون
والنردُ في المقهى يحابي
من حظه قد فلق الصَخَرْ
بيش جهار. . .
وجيبي للّه يصفّرْ.

عشرُ سنين من السفْر ـ
ومدينتي على ظهرها مستلقية
تمجّ حقداً لعشاقها
فالحُبُّ فيها ليس يسقط في الدروب

كالبذر في الأرض الحَريثهْ
الحبُّ فيها نزوةُ حاقدٍ
أشْبَقَهُ ضوءُ القمر.

عشاقُها بكاتُها
وعراتُها على الرصيف يهرولون
يهللون،
بكاتها يبكونها، وعراتها يأتونها
كطيورٍ سودٍ ضُمِّخت مناقيرُها ـ
عشرُ سنينَ من السفر
وجيبي للّه يصفّرْ

رعشت أسلاك المدينة بالخبرْ،
وعلى الأثير بين أنّات الهوى
وأزيز الأقمار والمؤتمرات
قيل، مات مَنْ قد وطأتْ جبهتَهُ
عشرُ سنين من السفر

في زحام الصائحين الهاتفين

بالموت موتاً للحياة.

لا حسنَ بعدَ اليوم ولا لُمى ولا حوَرْ.
لا مجد بعد اليوم ولا مسرّة ـ
إنما طينٌ آسنٌ وحرْفٌ مواتٌ للبشر.
فليرتفعْ صوتُ المؤذّن في الخرائبْ
ولينزِفِ العود لحناً ميّتاً
لمدينةٍ جدرانُها تنزُّ بغضاً والحجرْ.

لكنني بشوارعَ خضراءَ كنتُ أحلمْ
وأطفالٍ يتراكضون فيها
ووجوهٍ كالشموس الضاحكات
كوجوه العاشقين بلّلها همْيُ المطر.
وإذا أنا الذي لا أبكي إلا للجميل
أبكي للطرقات التائهات الآن
لا طفل يركض فيها،
شعاعُ الشمس جفاها
والشفاهُ لا تنطق فيها
والعينُ فيها أظلمت، واليد فيها

فلْذةٌ عمياء من الصخَر.

ولكنْ على الرصيف حفاةٌ يضحكون
بيش جهار. . .
وجيبي للّه يصفّرْ.

عشر سنين من السفر.

٢

وأخيراً ضربتِ عليّ النطاق، ومن
حدودك الصفراءِ جعلتِ
سور الصين، والهواءُ،
هواءُ آذارَ جعلتِ منهُ
في رئتيّ دخاناً،
وعشبُ الربيع رماداً بين يديّ.

وهكذا ذقتُ طعمَ الموتِ
وإنْ لم ترتّل الأجواقُ مراثيها
في الكنائس، ولم يقرأ
المقرىء الأعمى في الرواقْ.

نصفٌ على نصف،
حتى وجهُك انشقّ شِقّين،
شقٌّ يعضُّ شقاً،
أيتها المدينة تبكي
في زواياها النساء
ويبصق الرجالُ حقداً على الأرصفة،
والتحيةُ يلفظونها كالشتيمة.

٣

أبي، أبي،
من أي أرضٍ، أي كرمٍ جئت بي،
من أي حقلٍ حَرَثْتَهُ بأظافركْ،
من أي تلٍّ فيه غنّيتَ بكيتَ
رغيفك الصُّلْب معفّراً ـ
أبي،
من أي أرضٍ، لأيّ أرض جئت بي
حاملاً للناس بذراً
رغم الليالي الضامرات
حاملاً للناس بذراً وثمارا،

وهناكَ قذفت بي ـ أبتاه عفوكَ! رفْقاً
وصدرُك الأسمرُ درْعي ، قذفت بي
في اللهَبِ.
أم أنني هرباً من الزقاقِ
أشحتُ عنك بوجهي ، وانطلقتُ في هربي
حاملاً للناس بذركَ وثمارِكْ ،
للظلم أبكي ناقماً ، وإذا
كلابُهم ، كلابُ الذين بكيتُ لهم ،
على عقبي .

رُحماكَ أبي ، من أي أرضٍ أي كرم جئت بي
لأي جدبٍ ، أي عُقْمٍ ، أي نقعٍ مرعبِ .

٤

في النهار نراهم
على الآلة الحدباء يُحملون ،
وفي الليلِ البغايا وحاملو القوارير
يهيّئون الحشيش لساعة .
في الزقاق يبقرون نساءً دُعْجَ العيون

تضمّخ الحِنّةُ منهن شَعْرا وأظافر.
وتسعُ جِيفٍ مبيّضةٍ قد جلست
حول مائدةٍ عليها نقودٌ وورقْ.
وحول الزقاق لا سهل ولا جبلْ:
أرضٌ من رصاصْ،
تتهرّأ الأقدام عليها
وتتهرّأ الأفخاذُ والأردافْ.

هل النار قد خمدتْ
إلى قاعٍ من رمادْ
والحب هل طورد حتى
راح في الأرض يبحث عن مُنْزَوى
تحت الأرض ليلتقي
نزيزَ ليلٍ لاهبٍ في ثنيةٍ من التراب؟

جرحٌ أوجعُ من جرحِ الجسدْ
أن تُحْرَمَ الشفتانِ نُطْقاً
عما وراءَ الجسدْ ـ
وإذا الإنسانُ والكلبُ، بحثاً عن نجاة،

في صفيحة الصمتِ والقِيامةِ رفيقا حياة.

وحدَك في الليل تتأملُ الفناء
حتى يفرضَ الديكُ فجراً على موتك اليومي

وتقعدَ الشمسُ على وجهك كعضّة الأنياب.

٥

I

في مغارةٍ في ظاهر المدينة
ينبوعُ ماءٍ يفيضُ دوماً
أنجما،
من غَوْرٍ لغورٍ كالصدى
يفيض دوماً
أنجما.
ذاتَ يومٍ جاء هنا
غريبٌ هارباً بحبيبته،
هارباً
من الشفاهِ الصائتةِ

في الظلامِ
ومن الوجوهِ المستعارة
كل عينٍ فيها في سَعَةِ المغارة
والموتُ لديها
وليدُ النصلِ أو السّأم.

هنا في الكهف حسناؤه
راحت ترقص وتغنّي
على النبع في دفقِهِ
الأملس فوقَ الحجرْ،
والصدى
يتجاوب قافزاً من غَوْرٍ لغورْ
كالماءِ يفيضُ على الحجرْ.

وفي الصخر أخذ الغريب
ينقش حسناءَهُ
في رقصها والأنجمُ تتراشُّ
من قدميها
كأنجم النبعِ تتراشّ

غلائلَ فوقَ نهديها،
وتحتها كتبْ:
اسكبِ الدمعَ يا نبعنَا
وسطّر الأرضِ بحبنا.

II

في كلِ جانحةٍ من المدينةِ
مَذْبَرةٌ تتوالدُ القنّاصةُ فيها
لتَطِنَّ مُشْهرةَ الزّبانات في حَوْمِها
حول طياتِ المدينة،
والصرَخاتُ فيها تتوالى،
تُرجّع الذكرى، رميةَ النَفْس إلى الورا،
إلى الأيام الغائراتِ الآن بزهرها
كالحُماتِ في لحم ذويها.

عُلّقَت الأجسادُ
سُمِّرت الأرجلُ والأكفُّ
على الأشجارِ من المدينة.
وعلى الأبواب في الأزقةِ والدروب

يتناعق القنّاصةُ كالغربانِ
عند أفواهِ كهوفٍ
قَذَفَ الأشلاءَ إليها
أمواجُ مَدٍّ من الطوفانِ ـ
وتفجرت المنازلُ ينابيعاً على ذويها ـ
ينابيعَ دَمْ.

وجاء صوتٌ من الأفواه القتيلة:
اسكبوا الدمعَ من قلبنا
وضرّجوا الأرضَ بحبنا.

أين السراةُ الضاحكونَ في ليلِ المدينة؟

٦

ضججتُ واللّه ضججتْ!
ضقتُ ذرعاً بقوتي
ضقت ذرعاً بيومٍ يشدُّ يوماً
في نطاقٍ أصمَّ أعمى
حول رأسي: أين فأسي،

فأسُ آبائي الطلقاءِ يمشون حفاةً
ألفَ ميلٍ والفأس على أكتافهم،
يغنون للشمس الحَقودِ والريحِ العاوية،
يغنون حتى لهاميات الأمطار في خِرَقٍ
يبكي لها الصخر من تحت أقدامهم،
ليخلصوا من نطاقٍ ما أصمّ.
آبائي ما خافوا الجوعَ قط
لأنهم والجوعَ رِفْقة،
ولا الغُربةَ في ديارٍ مُشْرَعاتٍ
ما هَمَّ أهلَها لو مات الغريب إعياءً في الأزقة.

«أعطِنا خبزنا كفافنا كل يوم»،
رباه، ما الذي نلناه غير ذاك، سوى -
سوى النشوة الكبرى،
نشوة الآفاقِ العاريات المترعات
بالباكيات والراقصين تحت أفنان الشجر؟

سأحملُ فأسي
وأرفعُ رأسي إلى الشُّمِّ من القممْ

وأضربُ الصخرَ الحبيبَ
المالىءَ السفحَ قصورا،
وأفْجُرُ الماءَ والثَمَرْ
وأقول لأولادي:
«من الجوع لا موت.
إنما الموتُ الرهيبُ هناكَ
حيثما وجدتم نطاقاً أصَمّ.
اشربوا الماءَ أحراراً ولا تنشقوا
إلا شَميمَ الشُمِّ من القِمَمْ.»

غريب على العَين

١

وَرْقَةُ عُشْبٍ شقّت حجرْ:
أصيحةُ ديكٍ جلجلت،
شَقّت الظلام، وجرّت الشمس من شَعرها، وأعلنتْ
سطوة النهار؟
معجزةُ الرعد على البوار، على
مشقّقِ الأفواهِ انقلبتْ
فاغرةً نحو السماء، والغيث انهمرْ!
خذي الروح، خذي الجسد،
خذي العقل، خذي، خذي
يا أصابعاً غرزتْ أظفارَها
أشجارَ وردٍ في دمي.

حبيبُك يحمل الليلَ والشمسَ معاً بين كفَّيه
ومن جوف الأرض يأتي
(كورقة عشب شقّت حجرْ)
مجنّحاً يحمل الندى، يرفّ بالطلّ على
بادياتِ عينيكِ، يديك،
يا أصابعاً غرزتْ أظفارَها
ينابيعَ عِشْقٍ في دمي.

٢

نسمةُ الطريقِ المائجِ ليلاً بالعيون،
ملجأ الغرباءِ والأنبياءِ
عشاقِ الأرصفةِ الطوال،
نسمةُ الطريقِ السادرِ الهادرِ النازلِ
من البيت إلى الكهف والعين، الصاعدِ
من البيت إلى الجلجلة،
من فَرْشَةِ الأحلام إلى الصليب -
نسمةُ الطريق، حاملةُ الروثِ والياسمين
واللهاثِ والموتِ والضحكةِ الأخيرةِ من البداية

والنهاية، تأتي
غضباً ناعماً كملمس أفعى نائمة،
كابنة عشرين تُقبّل في الظلام
رَجلاً لأول مرة، كفتاةٍ عبث الحر بنهديها،
عذراءَ تطلبُ اللذّة وتُزجيها
مراوغةً ومُداورة،
لمساً وهمساً وشحناتٍ
من هَوَسِ اللحم والدم، وألفاظاً
تجسّد الطّيفَ وتَقْطر عِطراً
على اللسان والشفتين.

هو الطيف الذي يُنشي ويُمضّ. وهو الذي كالمجنون
يضرب دهاليزَ الدماغِ والقلبِ بحافريه.
هو الكِذْبةُ التي لا محيدَ عنها، الكذبةُ التي
صِدْقُها انبثق من الطريقِ عشيقِ الأنبياء والشاردين.
والطيف هو الطريق، والنسمةُ هَمْسُهُ
لمسةُ النهدين الهائمين في ليلة الحرّ الطويل.

٢

نهايةُ المطافِ أوَّلُهُ،
فلتدقَّ ساعاتُ المدينة عبثاً!
لا الليلُ يملك الآن خفَّاشَةً
ولا الصبحُ ينذر بالموتِ العتيد.
فعلى الجبل، حيث أقيمت خشبة الوعيد،

انفجرت صرخة الماءِ هلاهلْ
وخيولُ الليلِ البربريةِ صهلتْ
على شَفا المنهلِ القرير.
وغريبٌ في وجهه غمّازتان، في
شَعْره طَعْمُ البيادر،
وفي فمه صيفُ الكروم،
راح يغمس قدميه في السيل
ويصيح: لمن خيولُ الليل هذه؟
لمن، ألا لغريبٍ حوَّل الوقتَ دوائرْ
وقبّل إكليلَ الشوك حتى
جُنَّت الخيلُ والليلُ وساعاتُ المدينةِ كلُّها؟

هُــلاس

قاه قاه قاه
كضحكة الخنزيرِ في حَمأة القواذيرِ
ضُحْكتُهُ، ضحكتُها ـ
الأسودِ، السوداءِ، البغيّ في الدواخل.
من الأعماق المظلماتِ وجهٌ كوجه حصان الماءِ
ضحكتهُ على الشدقين قرقرةُ السواقي
تَنِقُّ الضفادعُ فيها الليلَ بطولِهِ،
ضحكةُ الظلماءِ، ضحكةُ الهزيعِ الذي،
سوى الضحكة السوداء هذِهِ،
لا يعرفُ صوتاً في الدواخل. . .

ثم ينحسر السوادُ، ويطفو
شيءٌ كالضبابِ أو النَغَمْ.

ويُسفر وجهٌ شفتاهُ الريّانتانِ هما
دعوةٌ وغواية ـ
وليمةٌ تبدأُ وانتصافَ الليل بشفاهٍ
تمزج الخمرَ بالريقِ على اللسان،
تقول فيها الساحرة: لا، لا، لا،
وتسلّم ثديين شقَّتْ عنهما قميصاً ليدي.
لا، لا، ثم تُسكِتُ الشفتين على فمي
مسقطةً بين يدَيّ فاكهتين من غصنٍ طرِي.
ذراعُها الحريريّة دُملِجتْ حول رأسي
وساقُها من حصار الثوبِ انهزمتْ
ملساءَ مدملجةً وضارية.
(كم عشيقةً، كم ليلةً، كم صباحاً،
وكم ظهراً وعشيّة؟
عشرون، ثلاثون، أربعون،
شُقْراً وسمراً أكفّهنّ على عينيَّ
غَشاواتُ حُلُمٍ وخَدَرْ).

ساعاتِ الليلِ، طيري!

طيري وحبيبةُ ليلتي لما تزل
تُنهلُني وتستقي -
أقَبْلَ الريِّ تطيرينَ،
وكيف تروى هذه العطشى ليدي؟
يا أجواقُ غنّي، خذينا
إلى الغابِ الضاحِك في أعلى الجبلْ
وسطَ رحابِ الليلِ، حفنةً من الأزلْ
في وجه الفضاءِ، والأفنانُ العوالي تنحني
كأقواس الكنائس الشواهق
واللّه يهدُرُ صوتُهُ بين الشجر.

يا بحراً امتدّ إلى الأبد،
يغسلُ شطآنَ الشمسِ والقمر
وهذا الوجهُ بين يديَّ
ما أسيلَ خَدَّيْهِ الباردين!
صبياً كنت أقتاتُ على الألحان
تصعد في الغياهب كالنوافير،
في الكنائسِ، في الأقبية، في الخرائب.

بهذا الدفق اغتسلتُ وكلّي غبارٌ وظمأ.

والوَثَنُ هذا، مُعْجزُ العينينِ والشفتين،
يعذّبني،
والعُنُقُ الشاهقُ كالمآذن
تحمله الكَتِفانِ عبئاً من حُلم
فوقَ رجراجتين شاردتين ـ
أشردي، اشردي،
معَ صيحات الملائكةِ اشردي،
مع الشمس اشردي، مع النجوم اشردي.
لقد أفقنا
ولم يَبقَ لنا سوى صحوٍ وبقايا من نَغَمْ ـ

وقاه قاه قاه
كقرقرة السواقي تنقُّ الضفادعُ فيها،
ضحكةُ الظلماءِ، ضحكةُ الأسودِ، السوداءِ،
البغيِّ في أعمق الدواخل.

عصفور العقيق

١

في الصبح أقول: أين عصفورُ العقيق؟
وإذا الأسرابُ على أشجار حديقتي
تتراقصُ ضوضاؤها حولَ رأسي ـ
فسيحٌ خواءُ القلبِ لا يمتلي
بالسقسقات وبالأغاني، باللَّمَسات من
أهدابِ عذارى وشفاهٍ تشتهي
ضحكاتُها دوماً صَيْدَها.
أين عصفورُ العقيقِ جناحُهُ
لا تَمَلُّهُ راحتي
في فضائي العريض أحملُهُ
فيملأ حتى الفيض منهُ هذا الخَواء؟

كركري وثرثري يا مناقيرُ عشقْتُها
واملأي الرحابَ، والقلبُ بعدُ خَواء.

٢

من يسكنُ القلب الخواء
ويستكينُ إلى الرحاب؟
صَرْصرٌ تعصف ثم تمضي
من خواءٍ لخواءْ
والضحكةُ الخضراءُ رنينُها
عبَثٌ وهَباء

طيرُ العقيق رأيتُهُ
يهبط في دفقةِ نارْ
(ما آلَم ما يُلقي الجسدُ نفسَهُ
على الرمضاء من الرؤى)
وأمسكتُهُ وإذا بهِ
من ذهبٍ وعقيقْ.
وشوشتُهُ همساً عابثاً،

فانتفض حيّاً في يدي،
وقلتُ هنا، في هذا الطير، سرّي.
ولكن في المساء
خفق الجناحان منه،
واختفى،
كلمسةٍ من يدٍ وَعَدَتْ
وما استطاعت أن تفي،
كهمسة في غفلة من الناس.
ضوعّت على الشفتين عطرا
في خيالٍ من قبلتين.
من يسكن القلب الخواء
ويستكين إلى الرحاب؟

أقنعةُ الموت جابهتُها،
نقضتُ ماضيَّ كُلَّهُ،
ثم جاءني يُلحِمُ نَسْجَهُ،
أنقُضُهُ فيُلحِمه، وكنت قد نسيتُهُ،
وقلتُ هنا، في طيريَ العقيقيِّ، سرّي،

سرٌّ أيامي التي نقضتُ خيوطَها
كأنني سأنسج الحبَّ أياماً لعمري:
أيامَ الهباءِ والموتُ يَرْصدُها
والموتُ من وراءِ قناعِهِ يرصدُها.

كالبحر في المدّ احتضنتُ الصخرَ مع القمر
واحتضنتُ عصفور العقيق،
وفي الليلِ
في الجَزْر العنيدِ رأيتُ
لا طيرَ ولا صخرَ ولا قمرْ.
فالليلُ خفّاشٌ عتيّ
يفترس الوشوشاتِ واللَّهَثاتْ
ويخفي بين جنبيه ملتهماً
طيوري كلَّها، أوّلُها طيرُ العقيق.

٢

هل في المساء لا أذكُر إلاّ
لواعجَ الصبحِ يُلهبُها
شهيٌّ من عيونٍ وشفاه

(شعرُكِ في الريحِ جناحْ
قدماكِ فيروزتان)
ثم آسىٰ لعصفورٍ من عقيق؟
سأُسلِم النفسَ، أسلمُها
للمساء، للّيلِ العتيِّ ـ
هذا الهلالُ الطالعُ الراني لنجمتِهِ،
هل تملأ النجمةُ ما بين جنبَيْه مِن خَواء؟
كركري وثرثري يا مناقيرُ عشقتُها ـ
فلعلّ في عودةِ الصبحِ يوماً
عودةَ عصفورِ العقيق.

دهاليز

ما كنتُ، لا ما كنتُ لأبغي
فراراً من متَاهتي
متاهةِ أهلي، رفقتي،
ينغَلُ فيها بعوضُ البِلى
ورفقتي قُنَّعٌ بموت اليوم
بعد اليوم
والموتُ طوالَ العمرِ
يمتدّ امتدادَ الأزل،

ما كنتُ، لا ما كنتُ لأروي
عن متاهتي
أنا الطليقُ، طليقٌ
بين جدرانٍ ثلاثةٍ

رابعُها الدهليزُ
يمتدّ امتدادَ الأزلِ،

ما كنتُ، لا ما كنتُ لأحكي
عن هجرتي
من حجرةٍ لحجرةٍ
خواؤها الغيهبُ فيهِ
أصداءُ السنابكِ النائياتِ
تضرب دوماً على مقلتي،
من أرض النَّوى
لأرض النوى
تمتدُّ امتدادَ الأزلِ،

لكنني
وجدت في الكلمات الطليقة منفذي
في الكلمات وجدتُ إلى الفضاءِ
أخيراً منفذي،
أمامي يمتدُّ

امتدادَ الأزلِ.

AGNUS DEI

ومن هذه الكلمات كلها، تلك التي
انطوى اللسانُ عليها، وانطوى العصبْ.
مدى الكون هنا، مدى اليَمِّ
والرعدِ المزمزمِ في الليالي،
مدى السماءِ والعشيقةُ الأولى
تسلّم نفسَها على الصخرة الشاهقة،
بُعْدُ البعيدِ السامقِ الخارق
قُرْبُ جرثومةِ المجْهَرِ من هذا الجسد،
واللفظةُ بعدُ مفقودةً، ضياعُها
ضياعي، ضياعُ جيليَ الحاقدِ الباكي،
ضياعٌ في بَوادي القفرِ والأفاعي،
ضياعُ ألفِ ألفٍ يُسمع صوتُهم من بعيد ـ
صوتٌ في البراري ـ

يا حملَ اللّهِ الحاملَ خطايا العالم
يا حملَ اللّهِ الحاملَ خطايا العالم
ارحمنا
واجمعِ الفعلَ إلى الكلمة،
والذكرى إلى اللسان،
وقطّرِ الدَّمع أحرفاً تُغْني عن الألم.
ذئابي أَلِفَتْني، وأَلِفْتُ السباعَ
في غابِ عُمْري.
جيلِيَ في الغابِ فريسةٌ
صَحبي طُعْمَةُ الضواري
قلوبُنا غُرِزَت على الأغصان للكواسر:
يا حملَ اللّهِ الحاملَ خطايا العالم،
قطّر دمعنا لفظاً
أنقذنا من غربةِ البكم،
غربةِ البراري.
حاملو البحر نحنُ
حاملو المَدى، حاملو السماء،
حاملو الموتِ بينَ نومةٍ ونومة.

متوالية شعريَّة

ولئن تَسِرْ صَيَحاتُ الديوك محدّثة عن الأصباح الكاذبة،
وتدفن صوتي المظلم، فإنه لما يزل
بين الخرائب ينتحب ـ لست أنا
بل هذه الدنيا العتيقة هي التي وُبِّخت ولا بد لها من أن تموت!
أيدث ستويل

١

شبحٌ في ضياء البدر سرى
بين الدوالي، وجهُهُ
أبيضُ كالقناعِ ، يداهُ
كفرعين مورقين ترتفعان
إلى الجدرانِ، نحو الطريق، إلى
بيتٍ صمتتْ أرجاؤه المظلمات ـ
لا الأيام تقيه، ولا الموت،
هوى السارية في ضياء البدرِ، على
شفتيها رغم القناع غناءٌ
كالهواء يهبّ، نحيبْ.

لست أنا، بل الدنيا هي التي تنتحب.

٢

أقنعةٌ هوتْ وإذا
قطوفُ الشفاهِ والنهودِ على
نواثر الصخر دواني
كهاربٍ من القيظ يرى
في حضنه هاربةً
في كهفٍ ازرورق صخرُهُ
يوشوشه الموج في غفلة
عمّا انتضاه سَأماً حُسْنُ الجسد.

نَزَواتي في الصخر قد نُحتتْ ـ
في الكهوف، وفي البيوت
البيضاء في شمسِ تموزَ وآبْ.
حفنةٌ من عمري ذُرذِرَتْ
على السفوح، وصوتي ينادي
إذا ما الأشباح سَرَتْ لتغرز في لحمي

شفاهها: سنُبرئُ الدنيا
من وباها، فافرحي!

٣

وثنيٌّ الحجر، جسديٌّ يحضُّ على
عبادةٍ تعدّت الروحَ إلى
ما وراء الروح والجسد
في حضارة بحرٍ وثنيّ -
وفي الحجر الناشر ظلّهُ
بين الشطّ والقممْ
صَرخَاتُ النفسِ مرئيةٌ
عَبْرَ الرياحِ وعبر القرون،
هَوجٌ من اللّذة والأسى
هَوجُ الشعراءِ والمجّانِ
وقلوبِ نُسّاكٍ في الأثواب منهم
عَبَقُ اللذةِ والأسى
هَوَجٌ على هَوَجْ.

٤

عاصفاً كالريح جئتُ
أصفُرُ بينَ الخرائب
خلال الأشجار والحجارة
بين المباني القديمةِ نوافذُها
كعينٍ بعد عين
ترنو إلى بِيدِ الشوارع ـ
كالريحِ في ليلٍ ماطرٍ
بعد لواهب التراب
والأماسيِّ العواقر
أصرخُ من هَوْجاء حبّي
أشقُّ الأشجارَ والخرائبَ والشوارع
برماحٍ من مطر ـ
جئتُكَ يا موتُ جئتك،
خذها بين عينيك منّي،
أنا فارس الفوارس
وجندُك نملٌ تحت عَقِبَيّ.

أرهبِ الأطفالَ بنار شدقيك!
ولئن أرهبتَ أهلَ المدينة
بالسُّحب الغضبى من منخريك
وشحذت لهم أنيابك البخراء
في طلب العذارى،
فلن تُرهب الريحَ التي جئت فيها
منقضّاً على عظامك الحشفاء:
جئتُ كألف رمحٍ
أصرخ للشمس من وَلَهي،
وفي صدري ألفُ حبّ وألفُ ألفِ حياة.



لغيريَ الكفُّ العقيمْ.
وضّاءةٌ طريقيَ التي
عاليَ الرأسِ مشيتُ فيها
كالسهم من قوسٍ بارعةٍ
نحو غايتي.
وما شفتاكِ فحسبُ غايتي

ولا شفتا امرأةٍ أخرى فحسبُ اختبأتْ
في ظلمة الحديقة.
يدي كيد البذّار في شهر تشرين
وأرضي لا تنتهي رحابها،
وإن يملأْها القنّاصةُ المقنّعون
مختبئين بين الغصنِ والغُصْنْ
ووراء كلّ حجر.

٦

مع الريحِ، مع المطر،
مع راكضةٍ خضراءَ على تلٍّ
عليه الشمسُ خضراءَ تُطِلُّ وتختفي
والغابةُ في انحدار مورقٍ
إلى نهر زئبقيٍّ زورقُنا
يتأرجح فيه مخضوضراً، ينتظر.
والوقت يختلس الخطى
بالراقصين، والشّعرُ في الريحِ
وفي المطرْ

أجنحةٌ ترفُّ ولا تطير.
من زهر الزوابع أقدامنا
وهباتُ الشمسِ شفاهُنا
والبوارقُ أيدينا بين السحب:
وإذا ما الريح زخّت
بجُمانِ الغيثِ، تلألأ الوجهُ مُكَوكَباً،
وتشبث الفستانُ
بالنهدين والبطن المستدير.
نرشف حبّات المطر
وبيننا وبين الريح عناق
كانطباق فم الخضراء على فمي.
والزورقُ في أخضرِ النهرِ يتأرجحُ، ينتظر.

٧

أردتُ وضع الشمس في عُقْبى النهارِ بقبضتي
وحبٌّ واحدةٍ عندي يغنّي
بألف لسانٍ، يريدني
أن أقفز في وجه الشمس،

أخطفها لأزجّ بها هديةً
في عبّ حبيبتي.
وحبُّ أخرى يغنّي بلسانٍ أعجمي
يتخطّى البواديَ والسُّمومَ التي
قطّ ما مرَّت ببذرةٍ تحملُها،
حيثُ ينفلق الصبحُ عن ينبوعِ نار
والمصلّون يرتلون عن
قيام الساعة يوم الدينونة والغضب.

للشمس يغنّي حبُّها
لتسقط نارُها
من بين نهديها في يدي.



في انتظاري احتجبتْ بين الظلال.
هلّلنَ يا نسوةً اجسامُهُنَّ
زجاجاتُ خمرٍ وقواريرُ عنبرْ.

الشوارع أنهرٌ تَمْخُرْنَ فيها
رافعاتٍ لعينيّ أشرعةً
تُفضي إلى الأبواب المغلقة:
زجاجاتُ خمرٍ وقواريرُ عنبر
تُدْلقُ في الشوارعِ والهمسُ يقصفُ
حولَ المدينة بالأسرار الفضيحة.

بين الظلال قد راحت تنتظر ـ
زجاجةَ خمرٍ وقارورةَ عنبر،
سكرتْ من فَوْحها الجدران والأغصان
وهلّلتْ بسرّها
لكل مستطرق فقال:
في انتظار من هذا الحُسْنُ
هذا العِشْقُ كلُّه؟

٩

ادفعُ الصخرةَ كل يوم صُعُداً
للذروة المحتومة،
نُزُلاً اتبعُها كل يومٍ

للحضيض.
تركتُها، هجرتُها،
راوغتُ حبيبَكِ، برسيفوني،
ورحتُ أطفر، كحصانٍ لا يروَّض،
من الذروة المحتومة نحو ذرى
لا صخر يُجَنْدل عنها للبشرْ.
وإلى أن أساقَ إلى
صخرتي المشؤومةِ من جديد
أكون مثلك قد وجدت سبيلي
إلى الأرض الزكية والربيع،
أكون مثلك قد نشقتُ ملءَ صدري
فَوْحَ ساعاتِ الجنون
من شبقِ الجسدِ والتراب
والشمسُ تستنضح من قُذالي العَرَقْ
بين أذرع ملساء شهية.
أإلى أمك، برسيفوني، تذهبين؟
صِنْويَ أنتِ! وراءَ أمكِ عشاقٌ
في انتظارْ. والربيعُ لجنونِ الشمس
لا للصخرةِ أو ربِّ الجحيم.

١٠

بصوتي أتكلم.
وإن هدرتُ فالبحر كان رفيقي،
ومن عاشر القوم أربعين يوماً ـ
ولكنني عاشرته أربعين عاماً،
وقذفْتُني كلَّ فجر، مثله،
على الشطآن العارية.
بصوتي أتكلم من خلال قناع الحديد
والصَخر، وكلُّ لفظةٍ مني
مركبٌ يقلعُ فيه ألفُ مغامر.

بين القطيع وقفتُ هنا
على رجليّ بين القوائم السائمة
ورأسي يضرب الشمس بلا تردد:
أيةُ خرافةٍ هذه التي تريدني
أن أمرّغ الرأس بين إليَتَيْ كلِّ ذي أربع؟
هنا وقفت لكيما
أصنعَ الأسطورةَ والحقيقةَ على نهجي

وأعيشَ عنف حُلُمي والحقيقة.
وحلُمي أشدُّ وعياً،
أشدُّ عضّاً في الجسد
(كالبحر) من كل حقيقة.

لعنة بْروميثيوس

«ما عدت أقوى، يا سيدي،
علي التمزيق من هذي الكبد.
ستٌّ سنينَ قد شيّبتْني -
أم أنها اللعنةُ التي رددها الجبل؟»
رفرف الصقر كسيراً
بين يدي جنرالِهِ،
مصدَّعَ المنقارِ، مخلبُهُ
كمخلب الجنرال مُثْقَلٌ
بذكرى الديدانِ والوباء.

وصاح الجنرال زفسْ:
«كم مرةٍ جئتَ تنبئني
بالهزيمة. وأنت السيدُ في الذُّرى!
عُدْ وكُلْ من الكَبِدِ المتمردة

ولا تأتني إلا مبشراً
بمجدنا» .

«واللعنةُ يا سيدي؟
رأيتُ المدنَ على السواحل
مليئةً بالشظايا،
وفي الجبل الشظايا
وفي الحقول
مكانَ القمح قد زرعوا الحديد.
لمجدنا، يا سيدي،
أمطروا السفوح موتاً،
والمدافعُ تتضاغى بصداها في الكهوف. »

«لمجدنا»، قال الجنرالُ
ملوحاً ببراثنه،
«سننسفُ البيوتَ،
ونصدَعُ الصخورَ، صخورَ التلاعِ
الواقفاتِ في مجاري الشمس،
نَخْرُمُها حتى الحشا» .

«واللعنة يا سيدي؟
خرّمتِ العيونَ والقلوبَ
في العواصم والقُرى.
نهشت الأرضَ في الجنوب
وفي الشمال.
لمجدنا، يا سيدي،
ألف صقرٍ مات
وفي منقاره كَبِدُ بروميثيوس
كالحجر،
وبروميثيوس لا يموت».

«المجد يقضي»، تأوه الجنرال،
«بإقامة المقصلة،
وكهربة النهودِ، نهودِ العذارى.
ما أطيب أعنابَ بروميثيوس،
وما أجمل البياضَ في منازله!»

«واللعنةُ يا سيدي؟
أتنهش السهلَ والرُّبى

أتنهشُ الزرعَ والضرع،
أتنهش رؤوس الفتية والفتيات
في الشوارع والأزقة،
وهم يتصايحون:
يا شفاهاً من عسل،
ما أطيب النومَ على الأقاحي،
ما أطيب النومَ على الضفاف!
والقلبُ دوماً يدوّي
بالحديد وبالرصاص، لمجدنا؟
وبروميثيوس، مئةً وثلاثين عاماً،
بين أسنان الشوك والحجر
واقفٌ تحت تحويم الصقور».

فانتصب الجنرال، وصاح:
«عد! عد إليه وكلْ
من كبده، أكباد رجاله ونسائه.
لقد سمعتُ اللعنة نفسَها، ورأيتُ الذرى
تضجّ بها براكينُها
من أوراسَ إلى وهرانَ،

حتى الصحراءُ نفثت لعنتَها:
عد إلى ذراك وكُلْ
من الكبد العاصية!»

وعاد الصقر لاهثاً وقد رأى
صُفْرةَ العُقم في عيني جنراله.
حوّم فوق المدافع والبنادق،
فوق وديان الموت، عبر الصحاري، علا،
إلى الشواهق، إلى الذرى،
وعلاها إلى السحاب، إلى الشمس،
وهناك مصوّباً من عين الشمس نفسه، صاح،
صاح ببروميثيوس، ثم هوى.
كنيزكٍ من السماءِ هوى
مُهَشّمَ المنقار والمخلب هوى
منشورَ الجناحين على
قدمي بروميثيوس
ميّتاً، قطعةً أخرى من حجر.

مارجيروم في بَيْت لحم

في القبو الفاغرِ شِدْقَيهِ على خدّ السماءِ
جلستَ، مليئاً بالأيامِ والأسفارِ
عبر أروقة روما وبيزنطية،
وقد هجعتْ بين جنبيك أخيراً
رياحُ فلسفاتِ أثينا
وانطاكيا وبيروت،
وأنتَ في القبو على
مدى خطوتين من مِذْوَدٍ
وُلد فيه للدنيا عصرٌ جديدْ.
سنةً إثْرَ سنةٍ في قبوك بين الكتبْ
وعلى قدميكَ ترابٌ قَدَّسَهُ دمُ المصلوبِ
وبعضُ شذى من زهورٍ سُقِيَتْ
في الليلِ أغاني الملائكة.

لكنّ لسانَك الصارمَ لم يهجعْ،
ولا القلمَ المُصِرَّ على الرق الثمين:
ويـلَ الأوثـانِ، يـا ويلَهـا، من كهفـك الصخريِّ
العتيق!
للرأي من كل صوبٍ يأتون إليك
وضلوعُك قد نتأت، وخدّاك قد ضمُرا،
فتفتحُ للآذان مغاليقَ النبوّة،
وصوتُك في القبو رعدٌ تضيئُهُ
عيناك الرهيبتان.
كِسْرةُ خبزٍ من بلدة الخبز تكفيك
وكوزُ ماءٍ من عَينٍ لعلَّ الناصريَّ
غسلَ وجهَهُ ذاتَ يومٍ قائظٍ بدمعها.
يوماً بعد يوم سمعتَ التراتيل
في الوادي الخصيب، وها هي ذي
لما تزلْ تملأُ القبوَ والمغارةَ قرناً بعد قرن!

رخامُ القدود كيف هجرتَه،
وفتنةَ الإغريقِ والسوريين اذ جمعوا

بين العقل والحس وسفّهوا كلَّ غَيْب؟
تَطَلُّعُ البذرةِ إلى الفَنَنْ ـ
انطلاقةُ المنيهةِ إلى الأزلْ،
ذلك صوتُك الدافق في القبو العتيق،
غَضوباً عارماً بحُبِّهِ، مردّداً
قصةَ فداءِ إلهٍ للبشرْ.

رسالة إلى توفيق صايغ

بوجهك ووجهي يقفونَ
ليجمعوا بعراً وحصى،
(بنو الزرائب هم)، وعطراً
بوحل الميازب يضمخون ذقونَهم.
ما عدتُ أريد أن أكتب.
واسميَ مطبوعاً جعلتُ أخشى رؤيتَهْ.
فهو ينبو عما حولَهُ، كعينٍ
حولاءَ بينَ عيون السّوى،
أو لفظةِ طهرٍ بين الشتائم ـ
أم أنه هو الشتيمةُ، لفظةُ الكفر والمرارة،
بين ألفاظ الطُّهرِ والعُذْرَةِ والسُّكَّرين؟
ما عدت أريد أن أكتب ـ ولمن؟
لمن بربك نكتب؟ هل سألت نفسك

هذا السؤالَ حين امتطيتَ مهرتك البيضاءَ الفتيّة؟
أندخلُ عراةً بين جمعٍ تسربلوا بالرقعْ،
أم ندخل مرتدين الوشي والجوخ
بين جمعٍ من عُراةٍ يريّلون؟
أبين الكُسَحاءِ ننطلقُ على الجياد الأصيلة؟
ما لنا ولهم؟ عشرين سنةً وَرَّمْتُ قلبي،
نَقّبْتُ عيني، جرّحتُ حنجرتي،
أجمع الأفكار والصور وأبثُّها مع هَبّاتِ الرياح
تحمل العشقَ مني والقلق -
ورفاقي يخزنون الدنانيرَ لا يقلقهم
عشقٌ لشيءٍ أو أحدْ.
بعشقٍ ابتُلينا كزكام أبديّ
(أقرأتَ «دوقة مالفي» لوبستر؟)
بعشقٍ لكل ما اعتزّ واهتزّ واكتنز،
بعشقٍ لفيضِ النورِ وفيضِ الدُّجى
وومضِ الرؤى وومضِ الجسد.
فهذا القلبُ منا مُبْتلى،
والناسُ في غنىً عن العشق والبليّة.

بوجهي ووجهك يقفون رافعين
فوقَ العيونِ أَيْديَهم، لئلا تصيبَها
رؤيةٌ منا تقضُّ مرقدَهم في الزريبة.

سئمتُهم، واللّه، وعِفْتُهُم:
غلاظَ القفا،
مقتعدي المقاهي، متهجئي الجرائدْ،
آكلي الشوكولا، ماضغي الهوا،
المتشدّقين - إذ عرّضوا أردافهم -
بكلاشش الأحزاب والتفاهات العِراض،
الفاغرين أفواهَ البلاهة في القاعات والسينمات،
قرّاءَ فلانٍ وفلانٍ في الفراش -
أف!
لمن تروي عن عشقِكَ الدامي لاهكْ
ومن تشبّهَ، ظلماً، بإلهك؟

نحن الغرباءُ الآبدون.
نحن الرافضونَ، المخلّفون للطينِ

سلاحفَ الطين، النافذونَ
مصاريعَ الأيامِ كالرصاصْ.
غبارُ أرجلِنا قصائد
ينتحر به الآخرون.

ما بعد الجُلجُلة

عشتُ مع المسيحِ
ومتُّ معهُ وبُعِثْتُ
وصوتي في الرحاب يلعلع،
صوتٌ كأنه ليس بصوتي
يُضرِمُ ناراً لستُ أدْريها ـ
ولِمَ النارُ؟ ولمن؟
أعطني ظلاًّ، وماءً بارداً،
ولأعلّقْ ذكرياتي على
جدارٍ في غرفة مهجورة.

تفرّق الحشدُ، والمدعوون راحوا،
والصوتُ يلعلع عبثاً،
كأنه صوتُ ما قبلَ الموتِ والجلجلة.

على شفتيّ بقيةٌ من عسلٍ
وبقيةٌ من علقمْ.

أبَعْدَ الموتِ جئت لكي أسمع صوتي
يشدّني إلى فراغٍ هجرتُهُ؟
أعطني ظلاً. ويا هذه
اجعلي في مائك قطعةً من ثلجْ.
الشمس محرقة. والحياة بعد الموتِ
عناء. وصوتي يعشق النار.
لمن؟ لمن؟

أغمضتُ جفنيّ، وعلى الشفتين
بقيةٌ من عسلٍ وبقيةٌ من علقمْ.

لوعة الشمس

١٩٧٩

زَمانُنا والمدينة

جيل المأساة نحن، وعن وعي نقبلها:
جيلٌ عاصرت أرضُه كل دورات الزمنْ
فوعى العصورَ كلها،
عرف الزمان مضاعَفاً
ضارباً عمقاً وعلوا،
عاشه عاشقاً، متمرداً
ويعيشه كل يوم صارخاً، متحدياً.
فلتكن المأساةُ زمانَنا،
زمانَ الحبيبةِ أرادوا منعها عنا،
ولكن لن نعيش إلا زمانها ـ
زمانَ مدينةِ الطور والزيتونِ
مدينة المعراج والجلجلة:
هي وحدَها في الأرض لنا أرضٌ،
وهي وحدها في السماء لنا سماءْ.

خماسية الصيف

١

أأعدُّ الآن السنين
لأؤكد المغزى القديم؟
أَشِبْنا وما شاب الدهرُ
أم أنّ الدهر قد شابَ والعمرُ فينا
مُثبتٌ، يدور حول ذاته
كبلبلٍ كلما ساطته يدٌ
اشتد دورانه وعلا غناؤه؟
حسابُ النفس عسير -
حسابُ الفعل واللافعل،
حساب الجهر والسريرة.

ربَّنا نعوذ بك مع الجاحظ
من فتنة القول وفتنة الفعل،
والفتنة اثنتان: ما نخشى
وما نشتهي،
ومأساتنا هذا الشطر فينا
بين قرنَيْ معضلة.
وجودنا المعضلة، فصمٌ ونيء
بين نصفين لوجه واحد،
بين لذتين جامحتين
يميناً ويساراً في وقت معاً.

أأعدّ الآن السنين
لأؤكد أن النصفينِ فينا
يتناقضان ويتلاحمان
يترافضان ويتكاملان،
كالصمت يحوي الرعدَ في جوفِهِ
أو الرعدِ يتعلقُ صمتَ الصاعقة؟

أيتها الوجوه الحلوةُ أَبقي
على بسماتك بين الأعين المربَدّة.
قد تجرح الصرخة همسة العاشقين
ولكن أيديهم ستلتقي
في المنعطف، بين وجهٍ ووجهْ،
بين سريرةٍ وجهيرة،
ويكون ثمة ما تصهر نارُهُ
تناقض الضدين.

٢

أذكر ما قاله الشعراء قبلي،
أذكر ما قلتُه وناقضتُ به نفسي،
وما نَسِيته أكثرُ مما أذكرهْ.
ولكن الذي يلصق بي من دأبه
تعقيدُ نقطةٍ كنت أَنشُدها واضحةً
ساعةَ ما بعد انتصاف الليل
والنومُ قد جفا،
ساعةَ النهوض صباحاً

وقلع الضرس أسهل من
مجابهة النهار:
ما هذه الشجرة التي نمت،
ما هذه الثمرة؟
أتفاحةٌ مذاقها نزاع وتمرد؟
أعنقودٌ تدلى
لمعذَّبٍ لا يطاله؟
أصُبَّارةٌ زهرها يتفتق كالشمس
تلقفها يد غافلة؟
ما أطيبَ فواكهَ الوهم لولا أنها
على عوسج متعطش لدمي.
والموت، ما الذي يخرج به
من هذه التجربة؟
لكأنه فارسٌ، يتحدى
يخرج من خبائه في أحرج الأوقات
مرتدياً الدرعَ والحديد
ويلوّح بالرمح الطويل
من على حصان مطهم، صهيلُهُ

اغراءٌ بالصراع .
قال، وقلت،
إن الحب وردة انتضت سيفاً،
مسيحٌ على الجبل
من غير موعظة،
سِرِينةٌ تَقَنَّع الغدرُ في حنجرتها،
فلم أزرق فاضح
وتهاويل نسّاكٍ قُدُسيه،
لا النومُ منه بمنجاةٍ
ولا اليقظة ـ
وحشة يضج الصمت بها
وجلاجلُ تهدد أمن المدينة .

أأقول شِبْنا وما شاب الدهرُ
أم أن الدهر قد شاب
ومن مقلتيه العتيقتين جعلنا
سراجاً لا يستضاء به؟
أنا ما قلت «لا» ليومي

طلباً لأمسي، ولا قلت
ليومي: اسرع، اننا
نبغي ما لا تراه العين في غد ـ
غدٍ يجيء وبين بُرْديهِ سيّافٌ يزجر.
جئت زماني عَطِشا
أطلب نهراً فائضاً،
والنهر بعيد ينوء بالفيافي.
(يا عيونا حلوة، تبسّمي،
كلما النهر نأى كنتِ دوما منهلي).

٢

في حُلُمي رأيته
منزوياًمع صحبٍ له يشربون،
في قاعة قديمة، على أطرافها
أناس يلغطون.
حييته ولكن لم يرني.
مررت به، ثم عدت ثانيةً
فرآني، وانتفض على قدميه يعانقني.

قيل لي إنه يوم خرج للقتال
مسلحاً ببندقية، قد قُتل -
وهذا هو صاحباً
يشرب، يضحك، أسودَ الشعر
كما كنا في الثلاثين.
ساعةَ استيقظتُ ذكرتُهُ بوضوح.
لن يستعيده فرحي،
شوقي إليه، ذكراي له
في الثلاثين.
لحظةً كانت، كقبلة غير متوقعة،
اختصرت السنين.
خدعةً لذيذة.
أقلت خدعة؟
ولكنه يبقى معي كما رأيته
في حلمي.
رفضت موته،
كما كان يرفضه.
فهو هنا في خلوة معي،

وزجاجات خمر الدنيا كلها
لن تكفِينَا.
خذوا عني موتكم، وانصرفوا.
لي أصدقاء لا يعترفون بالموت،
يضحكون في عباءاتهم الضافيات
كما لا يضحك الاطفال والعشاق.

رأيتهم يتلثمون في العتمة الشهباء
وقد اندمجت قاماتهم
بالتربة الحمراء، يجثمون ويحلّقون
كالصقور، من تل إلى تل،
من حجر إلى حجر،
من بين أشجار الزيتون، يضاحكون
موتا يرافقهم في غدوة وروحة.
من خلل النار ينفذون لموعد
يزرعون فيه النار والحديد
للذين ينخرُون أرضَنا كالوباء.
رأيتهم

يشاطرون الأرضَ عنفَها
يفجرون في أعين الغازين صخرها
منقذين عصر الأحزان هذا،
جاعلين من دموع الأمهات رصاصاً
يهلهل في حناجر العدو.

من شوك هذا الحزنِ تنبتُ
وردةُ هذا الأمل.
من لثام الفداء هذا
تقدح شرارة الحب للأرض، للإنسان:
وإذا محرقةُ ألف عامٍ، في
سعيرها طيرٌ عظيم يغني
أغنية تملأ الأرض والشمس
والبحارَ السبعةَ كلها.

٤

هكذا، في غرفة ملأى بالكتب والرسوم
(«صورتي، رسمتها بريشتي، قالت،

أمظلمةٌ، أمدوّمة؟ هكذا أنا!»)
وعلى الحائط ثمة امرأةٌ
بيدها سيف، وحول العنق منها
قلادة تبلغ سرتها العارية ـ
رؤوسُ رجالٍ نُظمت فيها كاللآلىء.
صورة هندية ترمز إلى ـ
لا، لن تقولها صاحبة الكتب،
وبيدها سيكارة سمراءُ طويلة
وبالأخرى كأس من النبيذ.
«أنت لا تستجيبين إلا للمفاجأة.»
فتقول: «بل اني لا أرضى إلا المفاجأة.
لأنني حينئذ لا أستطيع أن أفكر.»
شفتاها بلون النبيذ
بمذاق النبيذ،
والتفاجؤ بين الشفاه كفصل الرأس
لينتظم
لؤلؤةً أخرى،
في القلادة الهندية.

أتمثالٌ هوى في خندق، فلفت النظر؟
وتحدثت عن الشعر وهزيمة المنطق،
وفوحُ النبيذ يلف الثديينِ منها والعُنُقْ.

تماثيل تتهاوى في السواقي
تصدح بالدهشة وأعنف الحس
في أقصرِ اللحظات، أعجبها،
يسرقها الزمن وكأنها لم تكن
لتبقى في دنان القلب
كفيض من حَبَبْ.



أأعدّ الآن السنين
لأؤكد المغزى القديم؟
لأقول إن الزمان وهمٌ
أقحمتْه عليَّ يدٌ أرفضها؟

ما كان نغماً في البداية

هو نفسُهُ في ما يشبه الوسط أو النهاية،
نغمٌ كسقسقة من ناي بعيد
تنضم إليه لهثات الوتريات القريبة،
وإذا القرون تهدُرُ والأبواقُ تصدحْ
ويطغى بين الآن والآن عليها
خبط الطبول وقرع الصنوج،
ومن بينها تعود الأوتار تَحِزّ بالشكوى
وتدمدم أوتار «التشلو» خفيضةً
والهوائياتُ حَيِيَّةً تتهامس
ليعود النايُ أخيراً لسقسقةٍ
كالماء صافية.

مرةً أخرى،
هل للكون من بدء ومنتهى؟
خمسون دهراً عشتها وأنا
ابن عشرين عاماً،
وما كل يوم سوى
مغامرة أخرى مع الجوع، مع الموت،

وفي كل زاوية قصاصاتُ أيامي
تتبعثر ملأى بالقبلات والصرخات.

أي صنوجٍ، أي طبولٍ،
أي أبواقٍ لها أن تُفصح بصدحها
ورنينها عن أيام ترنُّ ساعاتها
بجوامح الهوى، بقعقعة الردى،
بصهيل الرفض والقبول؟
ما كان نغماً في البداية
هو الآن عين النغم.
والزعازع ما زالت تتنابح في المغاور الأولى
حيث كان أبي، وأبوه من قبله،
يجمع أغنامه كلما السُّحُبُ ادلهمّت،
ليتقي الأمطار والصاعقة.
هناك، في كهوف الجبال آثارُ نيرانِهِ،
بدخانها خَطَّ على الجدران رموزَ حياته.
رموزَ حياتي، أيتها الضاحكة
من خلل الرصاص والدخان والنبيذ
وعلى شفتيك رموزُ لَذّاتٍ مغلقة.

لوعة الشمس مملكة الحب

في أرضي شذى
يملأ صدري، مثيراً
قُدامى الشهواتِ، وشهوةً
هي دوماً باقية.
هناك أراهم على الأرصفة الحجرْ
يتناقشون، يتصايحون،
تحت أقواس البيوت القديمة،
بين باعة الخضار والجلود،
بين الحَمّارين والحمّالين، على
شفا الوادي
حيث نلعب بين الشوك والأقاحي.
يغنون، ويبكون، ويقهقهون،
ويرقصون ملوّحين بالهراوات والخناجر ـ

هَراواتهم مرصّعةٌ بالحديد
وخناجرهم معقوفة تلتمع.
الاسكافيُّ يغنّي لشمسٍ
تُطل عليه كمحب من بابِهِ
والمخرز يومض بين يديه
كأمل يسيّره من صبح لصبح،
والصِّبْيةُ كالرعاة
بعد غفوة أغنامهم، يروون الاقاصيص
منتظرين المعجزة،
لعل الرغيف سيكفي
عشرة أفواه جائعة،
والسمكة تنبىء عن وليمة.

ثم جاء عصر المجاعة.
وما عادت عشرة أرغفة تكفي
فما واحداً لا يضحك أو يغني
إلا من بين أنياب دامية.

من صبح لصبح ، حبيبتي ،
تقطر الساعاتُ أصواتاً
سوداء كلها ،
والشمسُ تأتي بظلمةٍ
مالحةٍ، جارحة .

وأرضيَ الأولى ، جنتي
حلمت بها في الضحى ، في الظهيرةْ ،
في ساعات الليل كلها .
فالحلم في مملكة الأسى
هو الفارس الجريء ،
هو الصوت النافذ
في حواجز الصمت ،
يجيء ويذهب ، ثم يعود
ليتفقد ما خلّف من رغاب
تشعّ كالحِلى الفضية ـ
معانقُ ، قلائد ، دمالج ،
نزعَتْها يدٌ ساعة الهوى

وألقت بها على الفراش
قرب وجه ساطع كالشمس.
الحلم هو الفارس الجريء
في مملكة الأسى، مملكة الرعب،
وممالكِ الحب كلّها.

وأرضي فيها شذى
يدب في الوعي، موقظاً
شهوات قدامى تتواثب
كعطر امرأةٍ أحببتُها يوماً
وغادرتُها وفي كفّيَّ
فوحٌ من شعرها، كلما
زارني الفوح من حيث لا أدري
استعدتُ مذاق اللذة من شفتيها.
في الأرض عبير الأغاني،
تراتيل منسيّة
تنطلق انطلاق الجن من القماقم.

(لا، لست وحدي الآن في الظل
أصغي إلى دقدقة من ساعة قديمة.
في الأرض حولي مياه
تصب عنيدةً طوفانَها.)

من أنت أيتها الجميلة الضاحكة؟
أزويعة من بحاري البعيدة؟
من أية قمةٍ عُلوُيةٍ هربتِ،
من أية سحابةٍ بيضاءَ هبطت
لتملأي الدنيا وميضا
وأعاصيرَ من فرح؟
في عينيك أرى العشاق
يدوّمون، وفي شفتيك أراهم
يتضاحكون، وبين يديك أراني
ملكَ العشاق كلهم.

ولكنّ هَوَساً يرهقني
كسم توزَّع في مفاصلي،
في ركبتيّ، في فخذيّ،

أُحسّهُ في رأسي
في مؤخر عنقي :
هوساً كريح تسفعني
عارياً برمالها.

اليقظة رعب،
والفراش رعب،
والنوم رعب.
أو لم يبق شيء نقوله؟
في الكلمات ظمأ جارح
حيث لا ماءَ يُرَجّى.
الصمت رعب آخر.
والصيادون يملأون الأرض
شراكاً وكلاباً،
والثعالب تصطاد البشر.
صورة أرضي أراها
في العشية والضحى،
حيث اللّه، والحوارُ الليلي

من خلال الأنفاق وأفخاذ النساء،
والعيونُ التي تحرن وتشبّ
والحجارةُ التي تتصاعدُ
للمزيد من الحجارة،
وضُحكاتُ فمٍ
أجملُ من الفجرِ بعد ليل لعين.
تلك هي الصورة التي
تطلق اللسان في حديث عن حضارة،
عن ماضٍ وما سوف يمضي،
عن جرائمَ ومذابحِ
وعشقٍ يسخر دوماً
من كلاب الموت وثعالبه.

قبضْتُ يدي على فراشةٍ
فانطبعتْ من جناحيها على راحتي
ذكرى الملاعب والحقول
وطيشِ نهاراتٍ أحرقتها لوعة الشمس.
وهي من داخل تصيح، تلك الصورة،

من جذرها الجريح
(لا أنكر أنني ناقشت ربي
ومحّصت حججه، ورفضتُ
الثعالب والكلاب
وزمحُهُ بخصري يطالبني
بالرضا والصمت)،
ففي يدي ينابيع الدهر
تنطلق منها صيحةُ الحب،
فصيحةُ الألم
فصيحةُ الحب مرة أخرى ـ
وفي الصيحة جنونٌ
كجنون النبوّة.

حبيبتي، رائعةَ الشّعر والصدغين،
أما ترين، جاءنا الحر
ثم انقضى،
ولكن للظلم، كالحزن، أوقاتاً لا تنقضي.
سمعتُ أصواتاً تضجّ

في الخناجر السوداءِ حولي ـ
ولكنّ أذني على الصخرة تصغي
إلى الأصوات تأتي
كسنابك الخيل بعيدةً
من باطن الصخر،
وإذا شعرك يغمر وجهي
وعطرك يملأ صدري .
بماذا غلّفتِ لي صمتي؟
أبالحب، أبالخمرِ،
أبالموت عبرَ الحياةِ،
أم بالحياة عبر الموتِ؟
كيف أداري هواك يا أرضي
وكيف يكون جوابي
أيها الجرح الغائر كالعشق في جسدي؟

ساعة الصفر

١

رأيت القمر هذه الليلة واقعاً
في شبكة من الاغصان، سمكةً
ما رأى مثلها صيادٌ في حكايةٍ، ولا سلطان.
فرحتُ. ذُهلتُ. صرختُ: ما أروع الليل!
ما أروع المنازلَ، والحدائق! ما أروع الأشجارَ
نقشت زخارفَها على صفحة الليل
واصطادت القمر تناغيه، وتعاتبه!
أعشقٌ هذا الليل كلُّهُ، أعشق هذا القمر؟

ولكن صوتاً من خلال الأشجار كان يلجّ بي،
أغافله، ويلج بي:
أأدركتْك الحالُ أخيراً، فانتشيتَ

لمشهدٍ أنت أدرى بأنه
يتكرر كل ليلة؟
محاصر أنت، وغشاوةٌ
كماء التعتيم تتكاثف على مقلتيكَ
يوماً بعد يوم. عيناك تكذّبانك
فيما ترى، إذناك تَكْذبان عليك
حتى الصمم. حياتك، كجريدتك اليومية،
تسبح بك في ضحاضح القول
صبحاً وعشية.
لم يبق في حياتك عمق تسترفده،
ينبوع يُسعف منك المآقي
وهذا الدمعُ قد جف.
مفضوحٌ عيشك، كعاهرة الطريق:
يستمعون إلى الرنة في هاتفك،
إلى مكتوم الهمس في رسائلك،
إلى رجفة الحمى في حنجرتك،
إلى ذبذبات الكوامن في عقلك وقلبك،
ويسجلونها عليك خسائر.

أرأيت القمر هذه الليلة إذن
وانتشيت؟
أيُّ مَصْلٍ حقنت به وريدك،
أيُّ كتابٍ قرأت، بأية صورة حدّقت،
فسقطت الغشاوة عن ناظريك،
وعن حواسك انزاحت
دروع الحديد،
وحزام العفة انكسر عن حقويك؟
أفي شبكة الأغصان رأيت الحبَّ
لؤلؤةً تتوهج كالقمر
يضاحكك في أقاصي الليل؟
أسرٌّ من أسرار الخلقِ
في أعماقك قد تكامل،
أينبوعٌ جديد قد تفجر
واكتسحتْ دوافقُهُ مغرياتِ الموت
الهامساتِ دوماً في فراشك؟

٢

غر رررر. . . يا خنازير!
(تذكرت شاعراً آخر قالها)
انعموا بمزابلكم، تقلبوا على الوثير من
قماماتكم، انهموا النفايات وتصوروا
انكم تقلبون الحضارات وجهاً لظهر،
رأساً على عقب.
غر ررر. . .
تمرّ السنون، والحبل على الجرّار،
وأنتم من وراء حوائط الطين تصوّبون
النخير والجثير. انكم تفكرون، ها!
وتحسبون أن من أشداقكم تسقط الدرر.

بدأتُ عَدِّيَ التنازليَّ لساعة الصفر.

ولكني رأيت القمر هذه الليلةَ واقعاً
في شبكة من الأغصان، سمكةً
ما رأى مثلها صياد في حكاية، ولا سلطان.

فرحت. ذهلت. صرخت: ما أروع الليل!
أحبّائي، حبيباتي، يتوهجون
كالشمس في سماء سوداء.

٣

هل كان لي أن أقول إلا ما قلتُ
وأفعلَ إلا ما فعلتْ؟
«يا ويلتاهُ مما رأيتُ،
يا ويلتاه مما أرى.»
سمعتُها تقولها وهي تنتحب، وأنا
أحاول أن أُعمِل منطقي
كفأس في قاع من الصوّان،
فيتطاير منها الشرر. ولكن الفأسَ نفسَها
قد تطير من يدي،
والهذيان يملأ الريح.
فلأمسك ببقية العقل هذه ـ
وكيف أمسك بشيء زَلِقٍ كهذا؟

كأنما السأم وباءٌ
يجتاح القلب والجسد،
والجنونُ أمر محتوم.

هل كان لي أن أقول إلا ما قلت
وأحبَّ إلا كما أحببت؟
حديقةٌ بحجم الكف دنياي
والدنيا ببحارها وجبالها
قذى في العين، هباءةٌ،
صخرةٌ على الصدر.
آه أيتها الهواجس،
ما عدتِ تملأين رؤياي كالملائكة.
مريعٌ وجهُكِ، مريع صوتك،
مريع تلولبك فيَّ كالزوبعة.

عَدّيَ التنازليُّ مستمر.

ولكنني رأيت القمر هذه الليلة واقعاً
في شبكة من الأغصان، سمكة

ما رأى مثلها صياد في حكاية، ولا سلطان.
فرحت. ذهلت. صرخت: ما أروع الليل!

٤

من قال انني غداً، أو بعدَ غدْ،
سأُدهَشُ، سأُذهَلُ، حين أرى ثانيةً
ما رأيته الليلة؟
لم تبق إلا متعة العين ـ
أو بعضُها، والعد التنازلي مستمر،
والهذيان يملأ الريح.

أيها الصوت البعيد،
لو كنت أكثر من صوت،
لو كنتَ أنت الذي عرفته قبل موتِهِ
لوجدتُ في كلماتي إليك
بعضاً من سلام كان حوارُنا
ينتهي إليه،
لشهر، لأسبوع، ليوم،

ريثما يتجدد الألم.
ولكنك ذهبت ولم تترك إلا صدى
أبحث عنه في وديانك وجبالك،
ولا ألقاه إلا في ليالي الدهشة النادرة.
تجددتْ آلامٌ عصت على الكلمات
وأنت بعيد، محصناً نفسك ضدنا بالموت.
لعلك كنت تعلم بما سيأتي،
كأنما الغيب انكشف لعينك فقلت:
هنا أقف! حسبي أنا! ولتبقَ لكم
آلام الأعماق التي طالما عرفتُها
وما امتدت إليّ يد من مسيح أو بشر.
أي يد تمتد لمن في القاع يصرخ؟
كنت أنت الأجرأ والأسرع
فعبرت إلى الضفة الأخرى.
وللمرة العشرين، وكأنها المرة الأولى،
أدركت أن الكلماتِ لا تُجدي.
والدموعَ لا تجدي. لا الصراخُ يجدي
ولا الصمتُ يجدي. حتى الحبُّ لا يجدي.

رأيتُ القمر هذه الليلة واقعاً
في شبكة من الأغصان، سمكة
ما رأى مثلها صياد في حكاية، ولا سلطان.
فرحت. ذهلت. صرخت: ما أروع الليل!
وأردت أن أنسى أن الليلَ علقم
والصبحَ مرارة، والساعةَ دهر
وكلٌّ لحظة في الوريد سكينْ.
هل هذا ما أحسستَ بهِ
يوم قصدت الصخرة المثقوبة
ورأيت ظلك يتحداك؟
أكان علي أن انتظر عشرين سنة
لأعرف ما عرَفتَ، لأعرف هذا الرعب،
هذه الوحشةَ الصارخةَ صراخاً أعنفَ من
البحر؟
ألهذا رأينا الرؤى
ورضِينا بشقائها، ايماناً بها؟
ألهذا حَمَلنا الصليب من أفقٍ إلى أفقْ
مؤمنين بأن بعد الصلب، القيامة؟

٥

رأيتٍ القمر هذه الليلة وذهلت.
وديانٌ كالجنون تفتحت عند قدميّ
وتمطّى الليل تلالا وراء تلال
وأرعد السكون وانشقّت بالصواعق الأرض،
ومن زرائبها انطلقت خنازيرُ تجأر
وتنقذف في الهاويات.
عدي التنازليّ، ألم أبلغْ به ساعة الصفر؟
كيف تخطيتُها؟ أيُّ يدٍ أومأت
وأوقفت التنفيذ؟
أية أصابع علت كسامقات الاشجار
أمام عيني، لأرى من بينها دنيا
ما زالت تجلجل بالمخاض
ومن حولها يتفجر العشاق والراقصون؟
ما أروع الليلَ، يلتهم الأرقام والساعات،
يُرخي سُدولَهُ ليَبتلي،
لينتهي
ولا ينتهي.

إلى سقراط

لماذا سَقَوْكَ السُّم يا سقراط؟

نستعيد السؤال وإن كنا
نعرف القصة كلها، ونعرف كيف إنك
قضيت الأيام قبل الموت بالحديث إلى تلاميذك
تواسيهم عن فقدانك المزمع
(كأن السم مشيئة الآلهة)
وكيف أنك في وحدتك سليت نفسك
بنظم خرافاتِ إيسوبَ من جديد.
(كأن في الحكمة قضاءً على السم)
وكيف أنك في اللحظة الأخيرة
لم تنسَ حتى طقسَ اسكلابيوس
فأوصيت بتقديم ديكٍ إليه

(كأن السم يقتضي براءة الذمة).
وهذا كان أكثرَ بكثير
مما يُطيقه حاكموك.
ولا هم كانوا يطيقون
روائع الشك التي رحت تبذرها
في أرض أثينا، مهدداً بها
يقيناتِهم الهزيلة.
على التسآل جازَوْك بالسم،
فلم تتساءل أنت.
رفعت كأس الشيكران إلى شفتيك
ولما جرعتَها، قتلتَهم جميعاً.

من يذكر اليوم أسماء الذين حاكموك؟

إلى شيطانة بيضاء

ماذا أقول، وأنت لا تفهمين
شيئاً مما أقول؟
لا تفهمين، كمن أغلق الاقفال على
أبواب ذهنه كلها،
شيطانةٌ بيضاءُ كبرياؤها
جهل سامق، ذاتٌ مضخمة
لا ترى إلا ذاتها
في مرآة مظلمة.
ماذا أقول لتفهمي؟
ليست لغتي لغة لك
وفي شرايينك ثلج
لا يذوب.
نُطقك أوليّاتُ كله

دون ما يتلو الأوليات.
تدورين في حلقة صغيرةٍ
من تفاهات صغيرةْ:
أي حديث ينجّيك،
أي رأي تدهشين لروعته،
والروعة انغلقت عيناك دونها،
لا ترين إلا نفسك في
مرآة يدك الصغيرة،
تزجّجين حاجبيك،
تكحّلين جفنيك،
تصبغين أظفارك،
وتسدلين على وجهك قناعاً
من عناد
يحفظ لك الظلمة
حتى في الظهيرة.
أجل، تضحكين، وتعلمين
أن هناك رجالاً يؤخذون
كالمجانين بضحكتك.

ولكنك لا تفقهين،
ولا تثيرك إلا
أحقادك الصغيرة.
قوامُك السحريّ خطأ
ارتكبته الطبيعة،
ومسته بفتنة من شيطان عيي،
لا يعرف معنى حتى للجحيم.
جحيمك هموم يومية صغيرة،
هموم، بحجم متعاتك الصغيرة،
بحجم ما تقرئين من
أقاصيص مجلات
أو تسمعين من أغان في الإذاعة،
ولن يكون ما تحبين
أو منْ تحبين،
إن كنت أبداً تحبين،
إلا من قياس فهمك الصغير.
آلامك كلها في الجسد
ولن تعلمي أن ثمة في الروح

آلاماً أعمق، وأرهب،
وأطيب...
ما الذي بوسعي أن أقول
وأنت لن تفهمي شيئاً
مما أقول؟

العَودَة

جئتُكِ من المدينة الكبرى
ولو متأخراً،
جئتك من الشوارع الضاجة
والسلالمِ الدَّبقَةِ المعتمة
والغرف المقفلات على الأسرّة
استنجد فيك غربةً أخرى،
أصيح : أريد هذا الجسد،
أريده متوتراً بصوتك، بلفظك،
ففيه غربتي، مدينتي.
جئتك أشتق منك شوارعي
جرائدي، كتبي، مراقصي،
أبحث فيك عن جوعي وتسكعي،
أفجِّرُ الحس من كل شِقٍّ

من كل زقاق وشرفة فيك،
أشرب السواد المحيط بشعرك كما
تشرب الشمسُ ليلَكِ الساجيَ كلَّه.
لجئتك من المدينة التي أتهتِني فيها
أحسب أنني أعرفكِ ولكن
أجيئك مدينةً غريبة مجهولة
حُلُماً يتغلغل في حلم،
شفتاك مضجعٌ لفمي، ونهداك مرساتي،
وأنا ما زلت أبحث عنك وعنّي فيكِ.
جسدك لن تسأليه أنت،
بل أنا الذي سأسألهُ
عن نيرانٍ طمرتِها تحت جلدِهِ ـ
هل أتت عليه أم أنه يضمُّها
كما يضم الماسُ وَقْدَه في صميمه؟
وإن جُرِحتُ بماسه أو التظيتُ بلهيبه
فلعله يوقظني فأراني
على رصيفٍ من ذراعيك، جفنيك،
اشتقّ منك شوارعي،

جرائدي، كتبي، مطاعمي، مراقصي،
ويتجدد فيك جوعي وتسكّعي.

إذ تَقِفُ الساعة أحياناً

١

من الأصوات انتقيت صوتاً
لو كان ناراً لأضرمني
أو خمراً لأسكرني.
يحفزني: يستنفر كل حسٍ
فيَّ، كلَّ عقلٍ ولا عقلٍ فيَّ
ويستنطقني
كأن زوابعَ فيّ تريد أن
تصرخ أو تغنّي

لا الشِّعرُ يكفيهِ، ولا المنطقُ
من أفلاطونَ أو دستويفسكي:

حجج الشيطان يستنبعها
ويتركني معلَّقَ العينينِ منهُ
بالشفتينِ
لا ترضيان الصمت إلا حينما
أفحمهما يائساً ـ
بالشفتينِ.

٢

أذهب وأجيء بين ضُحْكةٍ وضحكةْ
(لا الضَّحِكُ كلُّه بكاءٌ ولا البكاءُ كله)
والعالم ينتهي إلى أبعاد غرفةٍ واحدة
أو كرسيٌّ كالفراشة في حديقة معزولة.
ذراعٌ ملساءُ (تماثيل
من جزر الاغريق عرايا)
أسنانٌ تومض فتجسِّدُ
أبياتاً من شعر قديم
(لآلىءُ الخليجِ وطيبُ الأريج)
وصوتٌ في ثناياه فيفالدي، منفريديني.

لا أذكر إلا المبهمات
طيٌّ نازعٍ يتحفز.
فالوضوح للمنطق الزائل مع اللحظة الزائلة،
وتبقى المبهمات شواردَ تتردد
كألحانٍ نصفِ هناك، مع شوق كالظمأ
في أيام الشمس المشرقة.

٢

خذوا وجوهكم عني.
حسبي وجوهي أنا
لا تضحك الضحك كله
ولا تبكي البكاء كله،
وإن تكن رصينة فلأنها
تتصل بأحزانكم -
وأهمُّ منها كلها حزنيَ الأعمق
للوجوه التي وراء وجوهكم،
وجوهٍ تتغافلون عنها

فتصدُمُكم في سويعات عريكم
في أحلام الليل التي
لا تستطيع النفاق أو الكَذِبْ.

خذوا وجوهكم عني -
سئمتُها.

متوالية حب

اثنتان وعشرون قصيدة

١

في الليل بحثت عن نساء عرفتهن
فما وجدت في كل منعطف إلا
من تقول أنها أنت.

ولأن الليل مظلم،
ومفاتيحَ الأضواء في جيوب الآخرين،
لم أتبينْك إلا من صوتكِ،
وظل الشك يساورني.
هل هذه حقاً أنت؟

همستِ: نعم. وما تأكدتُ إلا
عندما هوت الشفتان على شفتيك

فعرفت أن المرأة هي أنت،
لأنك وحدك تعرفين كيف
تُزرع الشفاهُ في الشفاه هكذا.

كيف استطعت أن تزرعي همسك غابةً
على كلِ منعطف في طرقات ليلي،
فما عدتُ أسمع أو ألمس إلا شفتيك؟

٢

أردت محاورتَكِ
وأردت أنت المحاورة
لففتُ حولك خيوطاً من كلماتي
وحبكتِ حولي شبكة من كلماتك
وسحبتُ أنا الخيوط
وسحبتِ أنت الشبكة
فوقعتُ أخيراً ووقعتِ
أنتِ الصائد والصيد
وأنا المطارِد والطريد ـ

فأغلقتْ شفتاك الكلماتِ على
شفتي،وأغلقتُها على شفتيك،
وإذا بنا ننطلق:
أنت كطير من نار
وأنا كطير يلتهب.
بربك خبريني
كيف اجترحت المعجزة،
فجعلت من صيدك لي حريتي
ومن صيدي لك حرية
تُطلقك ـ وتُحرقني؟

ولكن لا، لا تتكلمي.
أغلقي على شفتيّ الكلماتِ
بشفتيك: هذه النارُ
لا أريد لها أن تنتهي.

٣

إن أنا أحببت أُخرياتٍ
يوم أحببتك،
لا تلوميني.
كنت فيهن دوماً
إنما أبحث عنك أنت:
فإن احببتك وما رأيتك،
كان علي أن أراك
في غيرك،
وكلما احببت غيرك
زاد حبي لك أنت.

أتقولين هذا تناقض
في منطق الحب؟
ربما، ولكن
لا في حبك أنت.
جمالك عندي قد عدا كلَّ منطقٍ
حتى أصبح التناقضُ نفسُهُ

منسجماً مع حبك،
وغدا عشقي لكل امرأة
عشقاً مجدداً لك أنت!

٤

من أجلك يحلو التمرد
ويحلو الخطر،
من أجلك يحلو العصيان ـ
حتى عصيان أوامرك.
والقلب إذ يهفو اليك
تتكرر الهفوات:
فلا تغضبي.
ماذا تتوقعين من رجلٍ
نهل من عينيك
واستقى من شفتيك
سوى أن تُفقديه عقلَهُ بيديك؟
أفتلومينه بعد ذاك على جنونِهِ،
وأنت ربةُ عقله وجنونِهْ؟

أنهليه المزيد من عينيك
واسقيه المزيد من شفتيك
عسي أن يكون في المزيد من جنونِهِ
عودةُ ما ضيّع بين يديكِ!

٥

للناس أنت جميلة.
رجالهم ونساؤهم يتحدثون
عن جمالك كل يوم
دهشة أو غَيْرة ويتحسرون،
وبعدَها ينصرفون
إلى الحديث عن أناس آخرين.

وأبقى أنا أحدث نفسي
أو أحدثك، محاولاً
تحديد جمالك:

تصوري، مثلاً، طيراً انطلق

من غابة سحرية مجهولة
واستحال (لكيما ندركَ سحرَهُ)
امرأةً تجوهرت في جسمها الغابات
بأغصانها الملتفة
وأثمارها العسلية،
بشموسها اللاهبة وأمطارها الخافقة،
بأحلامها المنسية
وذكريات هواها المستحيلة:
هكذا أنت، أو بعضُ ما هو أنت.
أعجوبة، من خلق شاعر،
فيها انقضاض النسر وانسياب النمرة،
تجسدت في عينيك،
شفتيك، يديك، نهديك،
لتشعشع صائحة بوجوهنا:
«من رأى حُسْنا كهذا،
خلاصةَ أجملِ ما مضى، أو هو ماض، أو
سيأتي؟»

ولكن الذي يبقى
بعد هذا كله،
وصفه أصعبُ بكثير:
من له أن يصف مذاق الغابات
(بأغصانها وأثمارها
بشموسها وأمطارها)
في شفتيك؟

فلأعد إلى شفتيك
ولأجرّبِ الوصفَ مرةً ثانيةً وثالثة!

٦

ذراعاكِ مملكتي ـ
وأنا الملكُ المنفي عنك.
وكلما سهدني الليل
بنفيي، ابتدعتُ خطة أخرى
لاسترجاع مملكتي.
وإذا وجدتني أغزو

ذراعيك متنكراً،
فإنهما تعرفان لمستي،
فتبقياني، ملكاً أسيراً، بينهما
ولن تطلقاني حتى بفدية،
إلا عندما يشاء لهما أن تطلقاني ـ
ليتهما أبداً لا تشاءان!

٧

حدثني صديقي عن قلق الغجرْ
وحدثته عن قلق البدو.
قلقٌ أكبرُ وأعتى
لم أستطع الحديث عنه ـ
قلقٌ أن أراك ولا أراك،
هذا التوقُ الجائرُ
الناغر في الصدر، إلى
رؤية عينيك، ولمسِ شفتيك،
هذا التحرق لبرد يديك
يدفعني إلى الضرب في

تيه الطرقاتِ، في قلقٍ
لن يعرف مثله البدو أو الغجر.

لو كنتِ أغنية لاشتريت منها
ألف اسطوانة،
لو كنتِ كتاباً لقرأتُهُ

كل يوم ألف مرة،
لو كنت زهرة لزرعت
غابة منها حول بيتي.
لكنك أنت أنت،
واحدة، فذة، فريدة،
وعلي أن أخوض في قلقي
باحثاً، لعلك فجأة
تلتمعين أمام عيني
على ضفة ما بعيدة،
فأسرع إلى عينيك،
شفتيك، يديك.

وإذا القلق وهم كله،
وإذا أنا سيد الأفراح كلها،
لساعة أو ساعتين.

ومن ثم -
عودة أخرى إلى القلق الذي
لن يعرف مثله البدو أو الغجر.



سأهرب منك أيتها الحبيبة
حباً بك،
وكلما رأيت عينيك
ملأتُ عينيَّ فراغاً
حباً بك،
وإن تكلمتِ، ملأتُ
اذنيّ رصاصاً،
وهربت منك.

ولكنني أعلم أنني
أهرب في دوائر،
فما أهرب إلا لألقاك
وأملأ عينيّ بعينيك ـ
ففي مداري أنت
أينما توجهت
أو أنك ربما
في المركز من مداري.
أيتها الحبيبة، حباً بك
أهرب منك
ولا أنجو،
فهلا فعلت شيئاً،
حباً بهذا الهارب منك
وقد ملأت عليه
الحياة دوائر
مركزها ومدارها أنت؟

تقولين: أفعل ماذا؟
حطمي الدوائر.
كيف؟ آه حبيبتي،
لست أدري،
فعلمُ ذلكَ عندَك أنتِ!

٩

صوتكِ يملأ رأسي بالأغاني،
أينما استدرت سمعته يقول:
«أتريد أن تقبلني؟» ـ
وتهدر الأنغام في رأسي.
وهل فقط أقبلك؟
أريد احتواءك كما
تحتوي الزوابعُ الأمواجَ الهائجة ـ
أريد أن أدوّم بك كما
تدوّم الزوابع بالبحار،
وأنت، أنت البحارُ التي
تصيح بي، يا رعبي الرائع،

لكيما أغرق فيها
غرقَ الزوابعِ
غرقَ الشمس في نيرانها المتلاطمة.
أو حشيٌّ حبي هكذا؟
ولكنه عذبٌ
كحلاوة نهدك المكور في يدي
أو حلاوة شفتيك
كلما التهمتهما
خشيت الفراق والظما
وودت لو تَخُطّين
اسمك على معصمي
بدمي -
فأصبر برؤيته على ظمأي.

ولكن صوتك يملأ رأسي
بالأغاني، ويطلق فيّ
زوابعَ جُنّت للبحارِ
وأنت، أنت بحاري.

١٠

من أحقُّ بكِ مني؟
أنا الذي نفذت إلى
خفايا توقك، وإذا
هي الخفايا من توقي أنا.
وإذا كفي تجس في نفسك مغلقات
حسبت أنني وحدي
أحمل مثلها بين جنحَيّ.

من أحق بك مني؟
أنا الذي
عشرَ سنينٍ عرفتُك فيها
عشر سنين والحب ينمو
مالئاً طرقاتي ـ
أتعثر به، ومكابرا
أنكره، وأنا
أرقب مقلتيك كمن
يرقب النجوم متوقعاً

أعجوبة من السماء ـ
وهل الأعجوبة إلا
حبك؟

من أحق بك مني
وكل حلم تحلمينه
أحدس به، أحلمه،
وأسمع خفايا اللهفة في
كل لفظة تسقط من
شفتيك،
وكأنها صدى لخفايا لهفتي.

آه حبيبتي،
من أحق بكِ مني؟

١١

جعلتُ الحياة مهنتي وهوايتي،
حبيبتي وأميرتي،

حتى لقد تعبث بي
وتمعن قسوةً في العبث
ثم ترخي ضفائر شعرها
ضارعة،
وتطلب النوم على صدري.

هكذا أنت:
مغامرتي التي أنشدها كل يوم،
حبيبتي وأميرتي،
تطلين وتطالبين ـ
في أسنانك الضاحكةِ
بريقُ الدعوة والغواية
وبريق أسياف الخطر.

غريبتي التي أحببتها من بعيد
وهي أقرب إليّ من مقلتي،
حبيبتي وأميرتي أنت،
هوايتي ومهنتي،

مغامرتي التي تملأ الدنيا كل يوم.

١٢

عطركِ اليوم رفيقي
يحتويه غلاف تركته لي،
عن قصد أو غير قصد:
وهل ألذ من عطرك
محتوى لرسالة؟

يمتّعني، يغيظني،
يذكّرني، يثيرني،
اشم فيه خديك، شفتيك،
اشم فيه بلوزك
وما وراء بلوزك،
يجسّد لي وهمك ـ
ما أطيبه!
ما أرهبه!
وأخشى عليه

يومي الهارب:
كم منه سيبقى
لغدٍ أو بعدِ غد؟
ولكن فيم خوفي
وغلافك باق لدي؟
وإن تلاشى عطرُهُ
نشقْتُ فيه دائماً
بصمات يديك التي
يتجدد عطرها
في الغلاف بسحرك،
غدا، وكلَّ غدٍ يليهِ!

١٣

رماح النور تطعنني
ومن الأشجار أصواتٌ تمزّقني
إذ تحتني شفتاك،
أنا المسافر اليك
أحمل البحار في جيوبي،

وبحاري شهوات
أوزعها على الغرباء ـ
أنا الغريب، يا غريبة عمري ـ
اللاجىء إلى عينيك، شفتيك،
ورماح النور من عينيك
تطعنني وتبلسمني،
وأصواتُ اشجارِكِ الخضراءِ
تمزقني وتلملمني،
وتعيدني إلى غربة أخرى من بحاري.

١٤

عيناك تضللاني،
تطلقاني
في غابة كثيفة،
وشفتاك
تتآمران على ضلالي.
ولكن نهديك كقبتين
ذهبيتين من لذة

يهديانِي
عودة إلى
حيث عيناك تعودان
فتضللاني .

جسدك هو غابتي
لا أرى فيها
طريقي ، ولكن
ما همني ما دام
بين شفتيك ونهديك
تجوالي وضلالي؟

١٥

أبالمتعة ، حبيبتي ، تتهمينني؟
ليتك تتهمينني بأنني
اختطفت حبك كمن
يختطف زجاجة خمر
ليحتسيها لاهثاً

على قارعة الطريق
فتفضحه النشوة لكل من يرى.
ليتك تتهمينني بأنني
سرقتُ خصلة من شعرك
ولففتها حول قلبي
كخيوط من نور وظلام،
فراح يرقص بها
وهو يَدْمى.
ليتك تتهمينني بأنني
مزقت نفسي بعينيك،
بيديك، بشفتيك ـ
ليتك قلت انني أسرفت
في قلقي، في أرقي،
في صيحات جذلي ويأسي،
في انشطار ذهني
بين حبي وغضبي.

أبالمتعة تتهمينني؟

ليتك بأي شيء آخر
تتهمينني، حبيبتي،
فَتَصْدُقَ عندها تهمتك!

١٦

أأشهر أربعة
أم أيام أربعة
أم أعوام بقدر ما في الدهر
من أعوام؟
ما عدت أستطيع العد:
فلا الأيامُ أيامٌ حقيقية
ولا الليالي ليال:
في منطقة غريبة، بين النور
والظلمة، بين البهجة والألم،
أقيم معك،
حيث يتداخل الزمن تداخل الموج،
وكل لحظة بحر وزوبعة.

بأي مقياس أقيس الهوج
واللذة والجنون؟
الأبدية لحظة من شفتيك،
واللحظة منهما، أبدية.

١٧

تعرَّيْ، حبيبتي، لأكسوك
بثوب من قبلاتي:
سأصنع لك من القبلات سوتيانا
وقميصاً يفاخران بنهديك،
وأحوك لك من القبلات
تنورة وما تحتها من حرير
يحتضنان كالعشاق ردفيك.
أما لساقيك فسأصنع من قبلاتي
أنعم جوربين عرفتهما ساقاك،
وإذا شكوتِ البرد ولو لحظة
وهبتُك من قبلاتي دفئاً
ما عرفتْ مثلَه النيرانُ في مصطلاك.

١٨

أأكتب اليك قصيدة أخرى
وساعات يومي كلها قصائد؟
أتذكرين قول جون كيتس
«إن الأغاني المسموعةَ عذبةٌ
ولكنْ أعذبُ منها الأغاني التي
لا تُسمَعُ»؟
لحظاتي أنت ملأتها أغاني
أسمعها، وهي لغيري لا تُسمَعُ،
يرددها صمتي
ولا تخضع لقيود الكلماتِ.
أقصيدة أخرى أكتبها
لعينيك وشفتيك،
إذ تلتمع ضاحكةً
في حلكة لحظاتي
غوايةً أبدعَ من كل القصائد؟

لياليَّ الطوالُ رحلة إلى الجحيم

لولا التماعاتُ شفتيك، عينيك،
لولا القصائد التي
تتساقط أغانيَ من يديك
فتتردد ألفاظاً ملءَ ساعاتي.

١٩

كل ما قلتُ، نسيتُهُ
كل ما كتبتُ، نسيته
كل ما وَعَدْتُ به وَوُعِدْتُ، نسيته
ساعةَ اقتحمتِ علي حياتي.

أي عواصف هوجاء بعشقها
تحملك دائبة إلي؟
من أي عوالم، أي أجواء، نسيتُها
تجيئين إلي في النوم واليَقَظة؟
مُشَرِّقاً كنتُ فغرّبتني
ومغرِّباً فشرقتني.
الوجوه التي كنت أغفو

على هواها، أفقدتنيها،
والأصوات التي كانت تهدهدني
أغرقها همسك العاصف كلُّها.
أستهجعين يوماً على عيني فأرى
أنني نسِيتُ، فقدتُ، الدنيا كلها.

٢٠

لو كان لي ما شئتُ
يا حبيبتي،
لحملتك بين ذراعيّ
وفتحت نوافذ الدنيا ليراك
الناس منها، وصحتُ:
يا نساءَ القارات الست،
انظرن! هذه أميرتُكُنَّ،
أبدعُ من صنع اللّه فيكُنَّ،
اخترتُها ـ
وما أختار إلا أروعَكُنَّ ـ
لتكون محط عبادتي وجنوني،

ومثيرة الغيرة في أجملكن.
لها وحدها أرقص وأغني،
لها من دونكن أعقل وأهذي
وأرفع صوتي بوجه الدنيا هذِهِ.

وعلى مرأى من نساء القارات
الست ورجالها،
لو كان لي ما شئت
يا حبيبتي
لالتقمت شفتيك، وغبت
بين نهديك، حتى
تنغلق نوافذ الدنيا علينا
وننسى دبيب أناسها من حولنا،
ولا نسمع
لهاث رياحها وقصف رعودها
إلا من بعيد، كأنها
من دنيا غير دنيانا.

٢١

مُرٌّ حبُّكِ
يا أحلى النساء عندي،
مر كحد الشفرة في لحمي
لشدة ما يحلو
لشفتيّ ولساني.
مر مرارة الصلب يا حبيبتي،
يخرقني بلذته، يسمرني
بذكر عينيك، شفتيك، يديك.

مر حبك يا حبيبتي
وكلا نهديك نبعُ حلاوةٍ
أنهل منه ولا أروى
في ظمأي المر اليك.

عشقتُ مرارة حبك
يا أحلى نساء الأرض عندي.

٣٢

في الليل
من كل عين في السماء
تهوي الضفادع للسواقي
لتنقّ،
فتجيبُ هذرا ساعتي
في آخر البهو الطويل.

ولكنْ غرقي ما أطيبه
في موجتي نهديك ـ
يا ليلُ صه، ويا
ضفدعُ كُفّي نقيقاً
في الساقية.

غريقةٌ شمسي هنا،
غرقي ما أطيبه ـ
يا ساعةُ اسكتي
في آخر البهو الطويل.

بين نهديك ليلي
يتعرى - ثم يغرق،
وإذا الفحمة جوهرة:
يا ساعةُ دقي
ويا ضفدعُ نقّي في الطين ما شئتِ.

سبع قصائد

١٩٨٩

الى راء ـ نون ـ راء   وهو أدري

١

أيامنا كالشتاء القُطبي :
ساعاتُ الفرح فيها، كالضياء، خاطفة،
والفواجعُ كالليل لا تنتهي .
للإشراقات أوقاتٌ ما أسرع ركضَها
وللظلمات المواسمُ المقيمة .

وفي نهاراتٍ أثقالُها كالرصاص
يومض كخَطْفِ البرقِ حبٌّ
لا يُفهمُ منطقُه،
ويندلعُ الشعرُ كاللهيب
في هشيمٍ ضربتْهُ الصاعقة :

في هذا الرمادِ العتيّ المنتشر
كيف بقيت هذه الكلماتُ الحارقة؟

٢

ما جاءت سنةٌ إلا وقلت:
هذه هي الأخيرة، فعليَّ
بكل يوم فيها، بكل صبح وعشية،
بأعمق وأقصى ما أستطيع ـ
كمن يريد سَحْبَ ما تبقى لديه من رصيد
وإنفاقهُ عملاً، متعةً، جنوناً
لكي لا يقع إرثاً لشخصٍ ما بعيد
مهما سُمِّي بالقريب.

وإذا السنة لا تأتي إلاّ بالمزيد،
كمن شكر ربَّهُ، فزادهُ ربُّه،
أو كأن بالسَّحب يزدادُ الرصيد
لا للعمل والمتعة والجنون فحسب،
بل للخيبات والمآسي والدموع.

أيُّ خليطٍ عنيدٍ هذا، كخُلاطة في العقـل،
لا يستقيم حسابٌ معه ولا إرادة؟
كلما أخذتُ منهُ، أراني أعطيتهُ
ما أريد وما لا أريد،
فيردُّ أضعافاً عليَّ
بما أريدُ ولا أريد ـ
حتى جعلتُ أرى أن السنة حين تجيء
هي التي تقول:
عليّ الآن به كلَّ يوم، كلَّ صبح وعشية،
بأعمقِ وأقصى ما استطيع من قديم وجديد.

٢

على الصخرة عشتُ أعوامي،
فأنا من الصخرةِ أصلاً وُلدتُ،
وفي الصخرة حفرتُ كهفي
ومن الكهفِ مددتُ بيتي
لأحلامي التي من الصخرةِ انبجستْ

ماءً لحياتي.
ولئن تركتُ الصخرةَ مقهوراً
ذات يومٍ في هجرتي،
فإني حملتُها جبلاً
في شرايين دمي،
وأينما حَلَلْتُ كانت هي دوماً
قلعتي -
فَيْئاً، وقُوتاً ليومي،
ومصدراً لقوّتي:
وحين انتفضتُ كانت الصخرةُ

طائرتي عبرَ القذائف،
وقنبلتي.

.٤

أحسب أنْ قد آن لي
أن أسأل سؤالاً
طرحه يوماً شاعرٌ بلغة أخرى:

«أغريبةٌ قصائدي؟»
وكما أجاب أجيب:
«تمنيتُ لو أنها أكثر غرابة،
مع أن ما يبدو جدٌّ مألوفٍ لعيني
محيِّراً يبدو للآخرين،
بل فيه مسٌّ من جنون».

وأراني أحياناً أعذرهم:
فرموزي، لغتي، ضروب كنايتي،
لعلّها لا تهجس إلّا بذواتي
الشتيتة ضمن ذاتي،
وإيقاعاتي لا تنتمي لقواعد غيري.
وقد دربتُ عيني
على ما ينسجُه نَوْلٌ
من صُنع يدي في مسكني
المفتوح، كخيمة في البادية
على كل ريح تهب من السماء
وتحرّكُ بي حُبي،

وعلى أصواتها دربتُ سمعي:
أنا الصانعُ والصنيع
أنا الوالد والوليد
أنا اللاعب واللعبة.
ولربما ما همني يوماً
أن يكون المتفرجُ إلا
وحدَهُ ربي.

٥

«ذهب الذين أحبّهم...»

واحداً واحداً ذهبوا
يذهبون، ويأخذون
بعضاً مني معهم كلَّ مرة
وأبقى لأداري ما تبقى،
متأمّلاً ما تركوا منهم ومني.

ما كان أكثرهم، وأشد حضورهم!

ما كان أجملهم، وأسخى عطاءهم!
محضوا الحياة عشقاً
وهبوها كلّ ما يمتلكون -
قلوبهم، دماءهم،
خيالاتهم، وأغنى
وأعنف ساعاتهم:
أروعَ الكلام تكلموا،
أروع الاغنيات غنوا،
أروع الرسوم رسموا،
أروع المباني بنوا،
أروع القصائد نظموا،
على دين الحياة عاشوا
وقضَوا وهم قتلى حبهم..

واحداً واحداً
ذهبوا، ويذهبون،
صامتين يتمزقون،
وغضاباً يصرخون،

واغتيالاً يُقتلون،
ورافضين ينتحرون،
ولئن تكن الحياة قد قهرتهم
لفرط ما عشقوا وأبدعوا
فقد قهروا الموت
في مكان ما
وحققوا ألف حياة.

ذهب الذين أُحبهم
وبقيتُ مثل السيف فرداً.

٦

أمن صحراء الصُبّار إلى حديقة الورد
كانت الرحلةُ الطويلة،
أم من الحديقة عَوْداً إلى الصحراء؟
أم أنها الرحلةُ نفسُها أبداً،
من الصبّار إلى الشوك،
من الشوك إلى الصبّار؟

وبين السهل والبحر
بين الأفق والأفق
أبحث عن بساتين البرتقال
وروابي الأعناب والزيتون،
فلا أرى إلا امتداد الفلوات ـ
من فلاة الأفاعي إلى فلاة العقارب.

أَبَعْدَ كلّ هذه الفلوات
أدخل الغابة؟ أرحل فيها
إلى حيث الوردُ والصبّار
كلاهما يتفجران لوناً
كشظايا الشمس التي
تُلهب الآفاق عند طلوعها
وتلهبها مرةً أخرى عند غروبها،
ويتساوى الوَقْدُ والوَجدُ أخيراً
في الأشواك والأكمام،
في الفروع الملويّة منذ الدهور
وفي أولى البراعم.

٧

نمرتي عيناها سوداوان خضراوان
يلتمع فيهما الغضب والعشق معاً
كالشرر الذي يشعل الحرائق
في غابات الصيف التي
استبد بها الجفافُ والظمأ.

في غابة المدينة تاهت، وأنا
في الغابة تائهٌ معها،
في هَوَج من العشق والغضب:
وما ألذه هَوَجاً
حين تزأر فجأةً
وقد توحّد فيها لهيبُ العشقِ
ونارُ الغضب،
وتستقرُّ على صدري
لتُحرقني في اللهيب المحتدم،
وتحترق.

نمرتي تبقى الخضرةُ السوداءُ
في عينيها تلتمع،
لإشعال المزيد من الحرائق
في غابات العشق التي
أنهكها الصيفُ في المدينة
بالجفاف والظمأ.

مؤلفات
جبرا ابراهيم جبرا

١ ـ الكتب الموضوعة (مع تواريخ طبعاتها الأولى)

- صراخ في ليل طويل، رواية، ١٩٥٥
- عرق وقصص أخرى، ١٩٥٦
(صدر موسّعاً بعنوان «عرق وبدايات من حرف الياء» في طبعة رابعة عام ١٩٨٣)
- تموز في المدينة، شعر، ١٩٥٩
- صيادون في شارع ضيّق، رواية بالإنكليزية، صدرت في لندن عام ١٩٦٠، وصدرت ترجمتها العربية لأول مرة عام ١٩٧٤.
- الحرية والطوفان، دراسات نقدية، ١٩٦٠
- الفن في العراق اليوم، بالإنكليزية، لندن، ١٩٦١
- المدار المغلق، شعر، ١٩٦٤
- الرحلة الثامنة، دراسات نقدية، ١٩٦٧
- السفينة، رواية، ١٩٧٠

- الفن العراقي المعاصر، بالإنكليزية والعربية، ١٩٧٢
- جواد سليم ونصب الحرية، دراسة نقدية، ١٩٧٤
- النار والجوهر، دراسات في الشعر، ١٩٧٥
- البحث عن وليد مسعود، رواية، ١٩٧٨
- ينابيع الرؤيا، دراسات نقدية، ١٩٧٩
- لوعة الشمس، شعر، ١٩٧٩
- عالم بلا خرائط (مع د. عبد الرحمن منيف)، رواية، ١٩٨٢
- السونيتات لوليم شكسبير، دراسة مع ترجمة أربعين سونيتة، ١٩٨٣
- جذور الفن العراقي (بالإنكليزية)، ١٩٨٤
- الفن والحلم والفعل، دراسات وحوارات، ١٩٨٥
- الغرف الأخرى، رواية، ١٩٨٦
- الملك الشمس، سيناريو روائي، ١٩٨٦
- جذور الفن العراقي (بالعربية)، ١٩٨٦
- البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية، ١٩٨٧
- بغداد بين الأمس واليوم (مع د. إحسان فتحي)، ١٩٨٧
- أيام العُقاب (خالد ومعركة اليرموك)، سيناريو روائي، ١٩٨٨

- تمجيدٌ للحياة (A Celebration of Life). مقـالات في الأدب والفن، ١٩٨٩
- تأملات في بنيان مرمري، دراسات وحوارات، ١٩٨٩
- الأعمال الشعرية الكاملة ١٩٩٠

٢ ـ الكتب المترجمة

نقل إلى العربية قرابة ثلاثين كتاباً، أهمّها:

- أدونيس أو تمـوز (من كتاب، «الغصن الـذهبي) جيمز فريزر
- ما قبل الفلسفة ـ هنري فرانكفورت وآخرون
- آفاق الفن ـ الكسندر أليوت
- الصخب والعنف ـ وليم فوكنر
- ألبيركاموا ـ جرمين بري
- الأديب وصناعته ـ عشرة نقاد أمريكيين
- الحياة في الدراما ـ أريك بنتلي
- الأسطورة والرمز ـ عدد من النقاد.
- قلعة أكسل ـ أدموند ولسون
- في انتظار غودو ـ صموئيل بيكيت
- ديلان توماس ـ أربعة عشر ناقداً

- شكسبير معاصرنا ـ يان كوت
- ما الذي يحدث في «هاملت» ـ جون دوفر ولسون
- شكسبير والإنسان المستوحد ـ جانيت ديلون
- برج بابل ـ أندريه بارو
- الأمير السعيد وحكايات أخرى ـ أوسكار وايلد
- حكايات من لافونتين
- أيلول بلا مطر ـ أثنا عشر قاصّاً إنكليزياً وأمريكياً

المسرحيات التالية لوليم شكسبير، مع مقدمات ودراسات:

- مأساة هاملت
- مأساة الملك لير
- مأساة عطيل
- مأساة مكبث
- مأساة كريولانس
- العاصفة
- الليلة الثانية عشرة

المجموعات

